تأمـلات
في جماليات النص القرآني

تأليف
دكتور / أحمد درويش

دار نهضة مصر
للنشر

العنوان:

تأملات في جماليات النص القرآني

تأليف:

دكتور / أحمد درويش

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 977-14-4289-9
رقم الإيداع: 10319 / 2010
الطبعة الأولى: يناير 2011

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي
- المهندسين - الجيزة

بين يدي هذه القراءة

يأتي جمع هذه الملاحظات، التي تدور حول جماليات النص القرآني بين دفتي كتاب واحد، بعد صدور أكثر من ثلاثين كتابًا لي بين مؤلفات ومترجمات ودواوين شعرية، ينتمي الجانب الأكبر منها إلى الدراسات النقدية والأدبية والمقارنة. لكن خطة هذا الكتاب، فيما أعتقد، تختلف نوع اختلاف عنها جميعًا، من حيث البواعث وخطة التأليف، بل وشريحة القراء الذين يوجه إليهم الحديث، وأول هذه الفروق أن مادة هذا الكتاب ولدت من خلال المشافهة والحوار، قبل أن تنقل إلى لغة الكتابة والتدوين، على عكس كل مؤلفاتي السابقة، وكانت هذه الحوارات ثمرة أحاديث إذاعية في برنامج لغة القرآن، حاورني خلالها في إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة- الإذاعي اللامع الأستاذ أحمد عبد الظاهر، وهو رجل ينتمي تكوينه العلمي إلى الهندسة الزراعية، وتكوينه الثقافي متين البنيان من خلال قراءات واسعة، وبديهة حاضرة، وكانت هذه الأحاديث تأتي بين الحين والحين في شكل موجات، تغطي كل موجة منها موضوعًا من موضوعات الحوار على امتداد النص القرآني، أو تتبع سورة من سوره متلمسة خطوط الاتصال بين وحداتها المتعاقبة، ولا بد أن أقول إن الصدى الطيب الذي كان يصلني بعد إذاعة هذه الأحاديث من شرائح مختلفة من المستمعين، تمتد من عامة المثقفين إلى خاصتهم، كان من بين العوامل الرئيسة التي كانت تشجعني على إعادة المحاولة مع موجة أخرى حين تسمح لي شواغلي ومسئوليات المهام العلمية والثقافية الملقاة على كاهلي، أن أتروح منها، بالاستسلام للموجة الجديدة.

وعندما تراكمت بعض حلقات هذه اللقاءات، سمعت مقترحات كثيرة ممن استمعوا إليها، بأن أصدرها في كتاب يصلح مادة لفتح الحوار حولها لمن لم يسمعها في حينها، ووجدت صعوبة في تلبية المقترح على إغرائه وجماله- فلم أكن أحتفظ بأصول مكتوبة، ولا بشرائط مسجلة، وكانت لديَّ تجربة طويلة مع الإهمال في

الاحتفاظ بحلقات إذاعية مماثلة. كانت تذيعها لي إذاعة سلطنة عمان في شكل برنامج يومي استمر نحو اثني عشر عامًا متصلة (1991 -2003) تحت عنوان «من كنوز الثقافة العربية» وأثمر أكثر من أربعة آلاف حلقة، ليس لدي منها شيء مكتوب أو مسجل. لكن حلقات « لغة القرآن» لم تكن بهذه الكثرة، وكان طلب إعادة تسجيلها من الإذاعة المصرية متاحًا، بعد اجتياز العقبات الإدارية وسداد الرسوم المطلوبة، وتطلبت مرحلة إعادة الكلام المسموع إلى مكتوب من الجهد ما لم نكن نظنُّه بهذه الصعوبة والتشابك والتعقيد. ومن إعادة الصياغة ما كان ضروريًّا، ومن مراجعة الهيكل الشفاهي وما يتبعه من حذف لوازم صوتية أو تعبيرية أو تكرارات أو إحالات، لكي يتحول إلى هيكل كتابي لا ينشغل قارئه بشكله عن محتواه، ولم يكن الأمر ميسورا كما كنت أتصور، وتطلب الأمر أكثر من مراجعة للنص، وقد بذل الأساتذة سعيد السنوسي وعبد الغفار محمد عبد العليم، ومحمود عبد العظيم مع بعض زملائهم من شباب علماء دار العلوم، جهدًا مشكورًا في بعض مراحل المراجعة، فلهم جميعًا مني الشكر والتقدير ومن الله الجزاء والثواب.

لقد كان همي خلال إعداد هذه المادة أن أتأهب لاستقبال النص القرآني بما يليق به من معارف ضرورية كاشفة، ثم أترك نفسي له، واضعًا في الحسبان أنه «نص حيٌّ» لم يأت فقط لكي يقرأه الذين عاصروا نزول الوحي ولا لكي يؤوله التابعون لهم، ولا لكي يعكف عليه علماء الفروع المتخصصة في القرون الأولى، مع أهمية هذا كله وإجلاله، وإنما أتى؛ لكي يتسرب إشعاعه إلى نفوس المتلقين على اختلاف درجاتهم، شريطة التأهب، وعدم الانغلاق أو ادعاء الوصول إلى القول الفصل الواحد في التأويل، ومن هذه الزاوية تأتي اجتهادات السابقين لكي تعين على مزيد من الحوار، لا لكي تغلق دونه الأبواب، على أن ننحي جانبًا مبدأ ترتيب أو أسبقية القراء في القرب من جوهر النص، بحسب ترتيبهم الزمني، فيكون قراء القرون الأولى أفضل بالضرورة من قراء القرون اللاحقة، فضلاً عن الأزمنة المعاصرة، مما يفرض على ملكة الفهم والتأويل قيودًا من التبعية وضيق مجال الحركة، لم يرد السابقون أنفسهم وضعنا فيه.

ولقد حرصت خلال الحوار مع النص القرآني ألا أتعرض لجوانب تدخل في اهتمامات علماء فروع أخرى من الدراسات الإسلامية، مثل قضايا الحل والحرمة،

والوعظ والتبشير والإنذار، والخطاب المباشر بكل درجاته، وظلت دائرة اهتمامي تدور في «جماليات النص» امتدادًا لاهتمامي الرئيسي بفروع البلاغة والنقد الأدبي، وفيوض التلقي للنص المحكم، وقد مارستها مع نصوص الأدب العربي، قديمة وحديثة، على امتداد أكثر من ثلاثين عامًا، والنص القرآني يأتي في قمتها من الناحية الجمالية الخالصة، وقد وجدت أن هذه الزاوية التي اخترتها، وجهدت في عدم الخروج منها، قد تريحني وتريح قارئي وسامعي معًا.

إنني وأنا أطرح هذه الباكورة من الملاحظات، يراود النفس حلم الاتساع والاستقصاء وتحلم فترة خريف العمر بأن ترطبها نسائم هذا النص الجميل إذا قضى الله ويسر وأعان، وهو ولي التوفيق.

دكتور / أحمد درويش

القاهرة في الأول من أبريل 2010

حول الإدراك الحسي في القرآن الكريم

أولاً: حاسة البصر

- **التحليل اللغوي لمادة رأى:**

وردت مادة (رأى) في القرآن أكثر من غيرها من أفعال الإدراك، والقرآن من الناحية الصوتية قد نحا منحىً غريبًا يخالف فيه الصوتيات التي كانت سائدة في لهجة قريش من ناحية الهمزة فإنه أتى بهذا الفعل مهموزًا، ولهجة قريش لا تهمز، لو أنك تسمع شاعرًا يمثل لهجة الشمال فسوف تجده عندما يأتي للحديث عن فعل الرؤية في الماضي المتكلم أو المخاطب يقول: رَيْتَ، ولا يقول: رأيتَ، وعندما يأتي الفعل في صيغة الماضي الغائب يقول: را، را وسمع، وشاعرهم الربيع بن ضَبُع الفزاري يقول في بيت يتحدث عن أن ما يخرج من الضرع فينفق في الكرم، لا يعود إلى الضرع أبدًا:

صاح هل ريت أو سمعت براع ... ردَّ في الضرعِ ما قرى في الحِلابِ

فأنت الآن عندما تسمع: صاح هل ريت، وبجامع اتساع دوائر المتعاملين مع اللهجة نفسها والإدغام الحاصل في الحروف المتقاربة- لا تكاد تستوعب المعنى، وعندما تسمع شاعرًا آخر يتحدث عن إنسان لا يبالي بما يسمعه وينصرف قانعًا بذاته، يقول (الأحوص الأنصاري):

أو عَرَّفوا بصنيعٍ عندَ مَكرُمَةٍ ... مضى ولَم يَثنِهِ ما را وَما سَمِعا

(أي ما رأى وما سمع). وعندما تجد شيئًا كهذا يراد أن يأتي في فعل شديد التردد وصاحب مهمة أساسية في منهج الإقناع القرآني، نرى كيف أن التعبير القرآني تحول عن هذا ليقول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: 1]، وليس أريت الذي يكذب بالدين؛ لوجود لبس من الناحية اللغوية، عندما تقال: أريت، يحدث اللبس، كأن المعنى أنك أنت أريتَ غيرك شيئًا؛ لأن هناك فعل (أرى) نفسه يحمل

معنيين في النطق: فـ(أرى) فعل مضارع ماضيها (رأيت)، و(أرى) التي مضارعها (يُري) يعني: أراه شيئًا، فعندما يعدل القرآن عن هذه اللهجة يجد هذا النوع من الانتقاء الذي هو في الأصل لغة الشمال، ولو أنه تم اللجوء إليه تلقائيًا لترتب عليه إحداث إرباك في الدلالة في واحدة من الصيغ الرئيسية جدًا في الإقناع، وبذلك ندرك سر عدول القرآن أو انتقاء القرآن للهمز في هذه الصيغة.

ومع ذلك فإنك تجد في صيغة أخرى، هي صيغة المضارع أن القبائل التي تهمزها، القبائل غير القرشية تقول: رأى يرأى، مثل كتب يكتب، أما القرآن فقد اختار في هذه الصيغة الصيغة الأخف على اللسان: يرى؛ لأنها لا تحدث لبسًا، فـ(يرى) ليس فيها لبس، فالشاعر القديم كان يقول:

ألا تـــلك جـــارتنـــا بالغضـــيّ تقـــول: أترأينـــه لـــن يضـــيفا

لكن القرآن عند مثلها يقول: أترينه؛ لأنها في هذه المسألة لا لبس فيها، بالإضافة إلى أنها خفيفة على اللسان، ومن ذلك: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ﴾[الصافات: 102]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[سبأ: 6]، وتستمر الصيغة بهذه الطريقة، فعلى مستوى الانتقاء الصوتي مع الخروج على لهجة قريش والانتقاء الخاص، نجد الانتقاء القرآني والإعجاز يكمن في مستوى اختيار الصيغة.

ومادة (رأى) ليس لها فحسب مجرد المدلول الدال على النظر أو الإبصار، ولكن لها مدلولات تتعدد وتكثر، وهذا جزء من غنى التراث اللغوي العربي الذي استغله القرآن استغلالاً جميلاً وأضاف إليه أبعادًا، وهي أن الحواس هي نوافذ المعرفة، وأن ما يدخل إلى العقل- مثلاً- إلى الذهن، إلى الفكر، إلى القلب، يمر بالباب الرئيسي، وهو باب الرؤية، وأن ما يُرى من حيث المبدأ يمكن أن يُرى في اليقظة، وأن يُرى في المنام، والفعلان يستخدمان بمعنى واحد، هذان فعلان يدلان من حيث التقسيم العام على بابين مشهورين، وإن كانت اللغة في هذه الحالة فرقت من خلال المصدر بين الرؤيا والرؤية؛ فالرؤيا هي رؤيا المنام، والرؤية هي الرؤية البصرية، فهذا تفريق أول، ومع ذلك فإن الرؤية بمعنى الرؤية البصرية لا تنصرف كلها إلى مدلول واحد، تقول: رأى كوكبًا، رأى نارًا، بمعنى أبصر، ولكن عندما تقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ

﴿ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: 5، 6]، لا يمكن أن ينصرف المعنى هنا من خلال إسناد (رأى) إلى ضمير الإنسان على معنى النظر، بل ينصرف المعنى إلى الظن، أي: ظن نفسه. وعندما يقول القرآن عن الكفار: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾[الأعراف: 149] هم الذين سُقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، لا يمكن صرف معنى الرؤية هنا إلى الظن، لأنها جاءت بعد أن سقط في أيديهم الشيء وأدركوا، ولا إلى الرؤية البصرية، وإنما ينبغي أن تكون بمعنى العلم، أي: وعلموا. وعندما تأتي في بعض القصص القرآني عبارة: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾[الكهف: 63]، فإنك لا يمكن أيضًا أن تحمل الرؤية فيها على الرؤية البصرية، ولا على معنى الظن، ولا معنى العلم، وإنما يأخذك المعنى إلى: أتذكر، فالرؤية بمعنى التذكر، وعندما تجد في سياق قرآني آخر قول الحق جلَّ وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾[الشعراء: 205]، لا يمكن لأيٍّ من السياقات السابقة أن يقود إلى شيء إلا بمعنى التخيل؛ لأنها مسألة مستقبلة لا تتصل بالظن ولا بالعلم ولا بالتذكر، وإنما هي الجناح المقابل للتذكر، فينبغي أن تنصرف إلى معنى التخيل، وعلى هذا النحو تتعدد الدلالات للفعل (رأى) في القرآن الكريم.

- **تفرد الصيغة القرآنية:**

1 - **أَلَمْ تَرَ إِلَى...**

يلاحظ القارئ للنص القرآني المعجز الجميل أنه قد تأتي صيغة لا تكاد تكون مألوفة، تكاد تكون صيغة قرآنية فقط بكاملها، فعندما تقرأ، مثلاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[الفرقان: 45]، تتساءل عن معنى: ألم تر إلى ربك كيف؛ فالعلاقات العادية بين الكلمات والضمائر نعرف منها أن (رأى) تتعدى بنفسها، رأيتك، رأيتها، أما (رأيت إلى كذا)، فهذه صيغة تكاد تكون قرآنية فحسب، حتى هاب الشاعر العربي في الجاهلية والإسلام هذه الصيغة إجلالاً. كيف تفسر اللغة: ألم تر إلى ربك، ألم تر إلى الذين؟ التفسير الذي تطرحه اللغة هو: ألم تعلم، لكن كيف نصل إلى (ألم تر إلى) بمعنى (ألم تعلم)؟ يقولون: ألم ينته علمك إلى كذا؟ فـ(ترى)- كما بينا من قبل- جزء من دلالتها العلم، ولو كان المراد في مرحلة مجازية أولى أن

تتحول (ألم تر) إلى (ألم تعلم) لقيل: ألم تر أن، وهذه صيغة من صيغ القرآن، تأتي بمعنى ألم «تعلم أن»، ولكن هذه المرة: ألم تر إلى، فالتدرج المجازي الذي حدث بعد تحول صيغة (ترى) إلى (تعلم) هو الوصول بمادة العلم إلى منتهاها، ليس تعلم فقط، وإنما ألم ينته علمك إلى، كأنها نوع من الأشياء الموغلة في الغرابة عندما يأتي الحديث عنها، كأن شيئًا مهمًا فاتك أن تعلمه، كيف لم يصل علمك إلى هذه المسألة، ألم تر إلى.. كيف، صيغة تتكرر كثيرًا في القرآن، نقف فيما بعد على الشواهد الدالة عليها.

2 - أرأيتك:

ومن الصيغ التي تأتي في القرآن (أرأيتك)، هذه الصيغة التي يُسنَد فيها إلى الفعل (رأى) تاء المخاطب المفتوحة وكاف الخطاب، (أرأيتك)، ما معناها؟ معناها: أخبرْني، واللغة العربية والسياق القرآني يأتي في بعض الأشياء التي يحدث فيها تحول من المعنى الأصلي إلى المعنى المجازي داخل السياق، فيعطيها نوعًا من التميز، ومن تميز هذه الصيغة أن تظل التاء مفتوحة، فهي لمفرد مخاطب مذكر، وإن كان الضمير التالي لها مثنى أو مجموعًا، فيقال: أرأيتكما، أرأيتكم، ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾[الأنعام: 40]، أرأيتكم، إذا أجريت بحثًا في الجزئيات الخاصة بالصيغة تجد كأن هناك تناقضًا؛ فـ(أرأيتكم) جزؤه الأول مفرد مذكر، وجزؤه الأخير جمع مذكر، لكن هذه الصيغة لأنه يراد منها إعطاء دلالة خاصة في النسق القرآني، ويراد منها إحداث هذا الضرب من التنوع في الدلالات الفنية العميقة التي تأتي بها مادة الرؤية، ويراد منها أن تكون: أخبرني، فصارت ثابتة على ذلك، أرأيتك، أرأيتكم، كما يتردد كثيرًا في القرآن.

لكن لماذا العدول عن (أخبرْني) إلى (أرأيت) /(أرأيتكم)؟ هذا مما له علاقة بالتعبير الفني الراقي، أنك تحدث نوعًا من التمثيل، نوعًا من الحوار المقنع؛ لأن (أخبرني) إذا قلتها، سيكون الرد: كذا هو كذا، معناها أن الإجابة ستكون هي استخراج المخزون الذهني للمخاطب، أما (أرأيت) فتحمل معنى التعجب، أنت تتحدث عن خبر معين ولا تريد أن تستثير حاسة الرؤية في ذاتها، ولكن تريد

أن تجعل دائرة العجب الذي يحتوي عليه مضمون الخبر- كأنه شيء يستحق أن يُعرَض للرؤية والمشاهد والتمثيل، فإدخال الرؤية يحدث هذا النوع من ناحية، ويعطي للمعنى هذه الدلالة المجازية المجسِّدة من ناحية أخرى. إذن فقد كان تعدد الدلالات في هذه الحالة هو السبب في عدول القرآن عن البديل الذي يمكن أن يجري على ألسنتنا في حديثنا العادي إلى مثل هذا التركيب الخاص؛ لأن القرآن يتحدث عن إثراء الحواس كلها، مادامت الرؤية جزءًا من منهج إقناعي عقلي لتثبيت العقيدة وتوسيع النظرة للكون وبناء الإنسان بناء جميلاً، فلابد أن تستثار كل الحواس. وهكذا وجدنا مادة (رأى) تتعدد مدلولاتها في القرآن الكريم، وتتسع لتشمل، ليس مجرد النظر والإبصار فحسب، بل لتشمل أشياء أخرى متنوعة ومعاني كثيرة.

- **الرؤية والإخبار:**

إن صيغة الإخبار في مادة الرؤية تكاد تمثل الشريحة الرئيسية الكبرى في القرآن؛ لأن القرآن باعتباره كتابًا يؤسس المعلومة، يَرْوي ما حدث، ويضيف أخبارًا، ويضيف حوادث، ثم يكمل استثارة الذهن واستثارة المخزون من خلال الاستفهام وغيره من الأدوات الأخرى، ولكن الإخبار شكل التأسيس الرئيسي، ومن أجل هذا فإن مادة الإخبار في الرؤية وردت في القرآن اثنتين ومائتي مرة تحديدًا؛ لكي تستحث عنصر الرؤية عند الإنسان، ومن اللافت للنظر أنك عندما تصنف هذه الأشياء بصفة أولية إلى آيات رؤية إخبارية في الوحي المكي وآيات رؤية إخبارية في الوحي المدني- تجد نسبة عالية في الوحي المكي؛ فقد وردت تسعًا وخمسين ومائة مرة في الوحي المكي، ثم نزلت ثلاثًا وأربعين مرة في الوحي المدني، وهذه تستحق وقفة كذلك.

لو أنك تصورت المجاز الرئيسي للفرق بين هؤلاء قبل أن يهتدوا، ثم بعد أن صاروا في مراحل الهداية، تجد أن العمى والإبصار هما هذا المجاز، كان الإنسان في ظلام فرأى، فتريد أن تشكل في المرحلة الأولى حاسة الرؤية إلى أبعد مدى، تريد أن تقوي أعصابها، وأن تجلي ضبابها، وتستثير جوانبها، فالخطاب في الوحي المكي لطائفتين متقابلتين: معاندين لا يريدون أن يروا، ومؤمنين يحبون

أن يهتدوا إلى طريق الرؤية وأن تُجلِّي عن عيونهم ما يمكن أن يكون قد تراكم من ضباب في مرحلة عدم الهداية. إنك عندما تفتح عينيك للنور لأول وهلة لا ترى للحظات، من أجل هذا يجري تزويد الحاسة في الفترة المكية بجرعة أكبر، فتصل- كما تقدم- إلى تسع وخمسين ومائة مرة لتكرر فعل الرؤية الإخبارية في الوحي المكي مقابل ثلاث وأربعين في الوحي المدني، وتلك دلالة أولى؛ لأن الناس- وقد ارتفعت الغيوم- وأصبحوا يرون، يمكن أن يخاطبوا فيما وراء ذلك، أما من قبل، فقد كان لا بد أن يتم الانتقال التدريجي حيث يخاطبون من التجريب إلى التجريد، ومن المسلمات الأولى والمعطيات إلى ما يمكن أن يُنمَّى ويُستدل عليه.

هذه الصيغة الإخبارية تأتي أيضًا في شبكة ضمائر عجيبة جدًّا، فهي تكاد تنصرف لكل ما يمكن أن يُسند إليه الرؤية، أنت تجد: رآك، رآها، رأته، رأتهم، رأوك، رأوه، رأيت، رأيتموه، رأيتهم، أرى، أراك، أراكم، ترى، نراهم، تجد الصيغ تتكرر، والصيغ المحتملة وحدها في هذه المسألة تصل إلى خمس وأربعين صيغة محتملة في النص القرآني لاستغلال جوانب الرؤية، كأنها لكل من يمكن أن يرى، حتى إنها في بعض الدلالات تصل إلى الأشياء الجامدة غير العاقلة في مثل: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[الفرقان: 12]، فالذي يُرى في هذه الحالة هو النار، العيون تفتح، الحاسة تفتح حتى حاسة الجماد غير العاقل، من أجل هذا يتسع ثراء الصيغة في النص القرآني حتى تصل إلى خمس وأربعين صيغة محتملة لتكرر صيغة الرؤية الإخبارية في القرآن الكريم.

- **تنوع معدلات التردد في مادة الرؤية:**

ومع تعدد وكثرة هذه الصيغ فإنها لم تَرِد متساوية في القرآن الكريم من حيث عدد مرات ورودها، والنسيج القرآني نسيج شديد الغنى، ففي الوقت الذي رأينا فيه من قبل كيف أن (رأى) نفسها يمكن أن تكون بمعنى ظن، أو بمعنى علم، أو بمعنى أدرك، أو رأى رؤية معنوية، أو رأى رؤية حسية؛ نجد درجات التردد ومرات الورود تختلف أيضًا باختلاف المواقف في المكي والمدني، والحاجة إلى استثارة الحس أحيانًا، واستثارة المعنى في حد ذاته، ويمكن أن تجد في بعض الصيغ صيغة مثل صيغة (رأى)، وتجد أنها وردت في ثلاث عشرة آية من القرآن الكريم، من بينها

اثنتا عشرة آية مكية وواحدة مدنية، وأن الذي يغلب عليها هو المعنى الحسي؛ لأن هذه المرحلة يراد فيها تنشيط الحواس، وهكذا تتغير بحسب الموقف، وحسب المراد من سياق الآيات.

القرآن كتاب الله الخالد المعجز الذي يكمن في لغته كثير من الأسرار التي لا تعطي نفسها مرة واحدة، ولا تنفد على مرِّ العصور، ولأن الإعجاز القرآني في مفتتحه إعجاز لغوي، فإن لغة القرآن المشعة تكاد كل كلمة منها تمثل ما تمثله الجوهرة الثمينة والدرة المصونة التي كلما نظرت إليها ازدادت تألقًا، وأعطتك بعضًا من أسرارها، وربما يرتبط هذا- ليس فقط بالشكل- ولكن بالمحتوى، وربما كانت قضية أفعال الإدراك الحسي تمثل واحدة من هذه القضايا التي تمثل الإعجاز المتجدد والإقناع المستمر من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل، ومن فرد إلى فرد.

- **بين الإدراك الحسي والإقناع العقلي:**

إن التركيز على أفعال الإدراك الحسي يكاد يمثل واحدًا من نماذج الإقناع الرئيسية في القرآن؛ فالإقناع في الديانات السابقة وفي كتب أخرى كان يميل عادة إلى أن يبدأ بالكليات لكي يصل منها إلى الجزئيات، حتى منهج المنطق الأرسطي الذي ساد التفكير العالمي، واعتُبر لفترة من الفترات النموذج المثالي في التفكير، كان هو المنهج الذي يبدأ بكليات الأمور، أي بمجرداتها، وصولاً إلى جزئياتها، أي إلى عناصرها التجريبية، وفي منهج كهذا لا تحتل الحواس إلا مرحلة تالية أو مرحلة أخيرة؛ فالذي يحتل المرحلة الأولى هو الفرض العقلي والبرهنة عليه، ولكي نبين في عجالة سريعة التقدم الذي ظن العالم أنه أحرزه، يكفي أن ننظر فقط إلى الخطوط العامة للمنطق القديم والمنطق الحديث، المنطق الحديث منذ (فرنسيس بيكون) وأئمة المذاهب التجريبية، كانت ثورتهم الأولى تكمن في أنه علينا أن نضع العكس، أي أن نبدأ من الجزئيات، أي من المحسوسات، وصولاً إلى الكليات، هذا هو منهج الإقناع الذي تبناه العقل الحديث، والذي تفجرت بسببه كل قضايا المعرفة والتجريب والتجديد شيئًا فشيئًا، هذا هو تمامًا الذي تثبته مفردات أفعال الإدراك الحسي في القرآن، والقرآن يعمد منذ البدء؛ لأنه يريد أن

يشكل العقل الإنساني على النحو الذي أراده الله له، أن يفتح العيون حتى آخرها، وأن يفتح الآذان، وأن يفتح منافذ الحس لكي ترى بوضوح، فلا شيء هناك يمكن إخفاؤه، ولا شيء يراد أن يُتجاهل، وإنما يراد للأمور كلها أن تُرَى وأن تُسمَع، أن تناقش وأن تُطرح التساؤلات حولها؛ لينتهي المتلقي المؤمن إلى الإقناع الكامل لعقله من خلال مجرداته، وحتى ينتهي المتلقي غير المسلم للإعذار الكامل، فقد فُتحت الأمور على منافذها من خلال ذلك المنهج التجريبي الدقيق المتمثل في كثرة وتنوع أفعال الإدراك الحسي في القرآن على النحو الذي نراه في عرضنا المستمر لهذه القضية.

- **بين تعبيرات الرؤية وتعبيرات السمع:**

كان للبيئة التي نزل فيها القرآن الكريم أثرها هنا في التركيز على مخاطبة من يخاطبون بالقرآن بهذه المفردات، البيئة لها أثر مزدوج، بمعنى أنها بيئة مفتوحة دون شك، وأن عنصر الرؤية فيها قابل لأنْ يُستغَل ويُركز عليه، لكنها في الوقت ذاته بيئة تعتمد على السماع، بمعنى أنها تعتمد على الشائعة أكثر مما تعتمد على تحقيق المقولة بنفسها، وربما كان هذا ملخصًا في تعبيرات مرت كثيرًا في القرآن مثل: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: 22]، فكرة أن الشيء الذي وجد، وأن الذي قيل، وأن الذي يُسمَع ويُتوارَث لا داعي لأنْ يجرَّب سواه، ولعل هذا- بصفة عامة- يعكسه في باب التردد الإحصائي نسبة أفعال الرؤية إلى أفعال السماع، فالمطلوب في البيئة الجديدة مزيد من أعمال الرؤية بمعانيها المختلفة، وهو الذي دفع هذه المادة ومشتقاتها ومترادفاتها: الرؤية والنظر والبصر إلى أن تتردد في القرآن أكثر من خمسين وأربعمائة مرة، على حين تظل مادة السمع تتردد أقل من مائتي مرة.

ومعلوم أن المجتمع البدوي كان يعتمد اعتمادًا كبيرًا على السمع، فلماذا تأتي الرؤية في القرآن أكثر من السمع؟ أتت لتقول: إن هنالك حاسة معطلة للمعنى الإقناعي لا بد أن تستيقظ، وإن الذي أورث التخلف والجمود هو عدم استغلال هذه

الحاسة على النحو الذي ينبغي، فهنالك تعطيل لحاسة كبرى تساعد عليها البيئة، ويساعد عليها ما أعطاه الله للإنسان من قوى ليستغلها، وهناك أيضًا من جهة أخرى تنويع لمفهوم هذه المادة في القرآن الكريم؛ فالرؤية ليست دائمًا الرؤية البصرية، ولكنها في دلالاتها تتنوع وتختلف.

ذكرنا أن كثرة ورود أفعال الإدراك الحسي في القرآن أسلوب سبق أوانه وعصره، وأن العلوم الحديثة كلها تؤكد سلامة هذا المنطق، وتبين أن ما ذهب إليه القرآن كان معجزة بحق وأي معجزة، وتعرضنا للرؤية كأحد العناصر الرئيسية للإدراك الحسي، وأنها وردت في القرآن أكثر من السمع والذوق وغيرهما من الحواس، وبينا السبب في ذلك، وهو دعوة الإنسان إلى إعمال النظر وأن يرى ما حوله، وأن الرؤية أيضًا لها معان متعددة تختلف عن معنى الرؤية البصرية، وهنا نتوقف مع الرؤية ونتعرض لها من الناحية الصوتية.

- **أفعال الحواس بين نص التنزيل المكتوب ونص الكون المفتوح:**

إن القرآن جزء من إعجازه أنه يأخذك إلى الكون، الكتاب المفتوح، إنه ليس لديه أسرار ولا كهنوت، بمعنى أنه ليس عليك أن تقتنع بكذا لأنه ينبغي أن يُقتَنع به، أو لأن شخصًا ما قاله، أو لأن جهة ما فرضتْه، ولكنه يقول لك: افتح عينيك وانظر حولك في أي مكان كنت، في البحر أو في الأرض، في الليل أو في النهار، في الخوف أو في الأمن، فهذا الكتاب المفتوح أمامك كتاب الكون هو الدعامة المستمرة للكتاب المعجز كتاب القرآن، وإذا كان الكتاب الأول قد انتهى من حيث التصور الزمني، انتهى نزوله في فترة معينة وأصبح ثابتًا، فإن الكتاب الثاني يتجدد كل لحظة، ويتجدد كل يوم، بمعنى أن ذلك الكتاب الثاني- كتاب الكون- يعد حاشية متجددة مفسرة للكتاب الأول، لعل هذا يؤكد معنى من المعاني الدقيقة في اللغة القرآنية، أن هذه اللغة أيضًا ليست ثابتة، بمعنى الجمود غير القابل للتحرك وتجدد الفهم، ولكنها ثابتة بمعنى عدم القابلية للتغيير النصي، وإن كانت متجددة، تكاد تكون مع كل ذي بصر وذي عقل وذي عين وذي فهم- من ناحية المدلولات- فهي ترتكز حول محور واحد ثابت، لكنه محور يقود كل ما نظرت إليه إلى أمواج متجددة

من المعاني، ومن طرائفها وعجائبها أنها لا يلغي بعضها بعضًا، فلا يُثبت نظر صحيح استطاع أن يكتشف جزءًا من أسرار الضوء أن ما سبقه كان مخطئًا، ليس بالضرورة، وإنما يستطيع أن يثبت أن هناك إضافة يمكن أن تلحق بكذا، هذا النوع من الفرق بين معنى الثبات ومعنى التجدد يوازيه ويكمله الكون الذي هو أيضًا يكاد يكون ثابتًا من حيث حقائق الجغرافيا وحقائق الجيولوجيا وغيرها، هذه حقائق، لكن تجليات هذا الكون وانخلاعه على الحواس وتأثيره في النفوس إقناعًا ورفضًا وقبولاً ورضا وسعادة وإيمانًا ذات تأثيرات متعددة، فإذا أضفت الكتابين معًا- الكتاب المعجز (القرآن) والكتاب المفتوح الآخر (الكون)- أدركتَ معنى الكتابين معًا، يفتح الكتاب المعجز العينين لكي تنظر دائمًا في حاشية الكتاب الثاني، ولكي تزداد منه نورًا على نور.

أما من حيث الرؤية، فإن مادة (رأى) وردت في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة، إنها من حيث الناحية الصوتية مادة من المواد الحساسة، من المواد الضعيفة، تتشكل من الراء- وهذه فقط هي الحرف القوي في تلك المادة- وهمزة وحرف معتل، والحرف المعتل عرضة للحذف في أي لحظة، بالجزم أو غير ذلك، والهمزة أيضًا، تلك التي شكلت في تاريخ العربية نوعًا من العلائم الجغرافية والخلافات اللهجية، فجزء من العرب يهمزون، أي ينطقون الكلمة مهموزة، وجزء يسهِّلون أو يخففون فلا ينطقونها مهموزة، ومن أجل هذا فإن الأفعال التي تحمل هذا النوع من العلة والهمزة تتعرض لأن يقول بعض الناس: رأيت، ولأن يقول بعضهم: ريْتَ؛ لأنه لا يعترف بوجود الهمزة، وبعضهم يقول: من رأى، وبعضهم: من را، وهي لهجات صحيحة، لكن القرآن يأخذ بأنسب هذه اللهجات، حتى ولو لم تكن شائعة؛ فالهمز لم يكن شائعًا في الشمال حيث لغة قريش، ومع ذلك اختاره القرآن؛ لأنه في كثير من المواقف يعطي ذلك النوع من الإيقاع الموسيقي والتوازن الصوتي، وقد كان العرب يتمازحون فيما بينهم حول مسألة همز الكلمات وعدمه، فإن بعضهم حين سأله أعرابي: هل تهمزون الفأرة؟ قال له: إنما يهمزها القط. فهذه المسألة شكلت جزءًا من العلائم الجغرافية في اللهجات العربية، ونجد أن القرآن قد لجأ إلى منهج انتقائي جميل يراعى فيه التوازن الصوتي، وأمن اللبس.

- **صيغة الأمر من مادة (رأى) و (نظر) في القرآن الكريم:**

إننا لم نر مرة واحدة صيغة الأمر من هذا الفعل في القرآن الكريم، والحقيقة أن هناك سببًا لغويًا، فهذه المادة مادة ضعيفة من حيث الصيغة اللغوية، مادة معتلة، وأهل الصرف يقولون إنك إذا نسجت فعل أمر من (رأى) فسيكون (رَ)، أي حرف الراء فقط، كما في وعى (عِ)، ووقى (قِ)، فصيغة الأمر إذن من (رأى) هي (رَ) أو (روا) بالنسبة للجماعة، وقد رأينا نهج القرآن في التعامل مع هذه المادة من حيث الهمز وعدم الهمز، والانتقاء الذي تم باللجوء إلى المادة المهموزة في الماضي، حتى على عكس ما كانت تفعل قريش، وهذا النوع من السياق الصوتي الجميل الذي يحرص القرآن عليه جعل هذه المادة تختفي في فعل الأمر من هذا الفعل (رأى)، بينما جاءت قليلا من (أرى)، مثل: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: 128]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾[فصلت: 29]، فالسياقات التي جاءت من (أرى) جاءت محدودة جدًا.

لكن اللافت للنظر أن القرآن الكريم، وهو يكمل بعضه بعضًا، قد عوض عن هذه المادة بمادة مرادفة هي مادة (نظر) حيث تكررت فيه كثيرًا صيغة فعل الأمر؛ من (انظر) و(انظروا)، وسنتوقف عند مادة (نظر) بالتفصيل فيما بعد، لكن هذا النوع من التعادل بين الخفَّة الصوتية وعكسها واضح في فعل الأمر من (نظر) و(رأى)، وسنرى فيما بعد أن هناك فروقًا دقيقة بين (رأى) و(نظر)، وأن المعنى اللغوي يؤيد تمامًا ما اختاره السياق القرآني، فأنت بصفة عامة ترى ولو لم تتعمد أن ترى، فأنت تسير في الشارع فترى الأشياء وهي تمر على عينيك، ولكن إذا أردت أن تتعمد نظرت إلى شيء ما، فأنت إذن لا تؤمر بأن ترى، فأحيانًا ترى ما لا تريد أن تراه، لكن عليك عندما تريد أن تتعظ بما ترى وأن تنتقي منه، أو أن تعمل حاسة الإبصار بمعنى أن تتأمل فأنت تؤمر بأن تنظر، لأن هناك فرقًا بين أن (ترى) وأن (تنظر)، كما بين (سمع) و(أنصت)، هناك فرق بين ما يفد على الحاسة للوهلة الأولى من معطيات الطبيعة ومن عمل الحاسة نفسها، فكل عين مفتوحة ترى، لكنْ هناك أناس يرون دون أن ينظروا، ومن أجل هذا- كما نعلم- فالإنسان يحاسب على ما ينظر إليه، وسنجد في مرحلة أخرى أن هناك أناسًا ينظرون ولا يبصرون،

وهذه مرحلة ثالثة، ومن أجل هذا فإن معطيات المعنى من ناحية ومقتضيات البنية الصوتية من ناحية ثانية جعلا الأمر عندما يوجه يوجه من خلال النظر وليس من خلال فعل الرؤية، وهذا هو تقريب سر اختفاء فعل الأمر من مادة (رأى) في النص القرآني.

- **الاستفهام من الرؤية بين الوحي المكي والوحي المدني:**

والحقيقة أن الدقة في السياق القرآني لا تجعل فقط التعدد واردًا بين صيغة وأخرى كتعدد المدلول بين (أرأيتم) و(ألم تر) و(ألم يروا)، بل تجعل التعدد واردًا بين مكان نزول الصيغة نفسها، بمعنى أنك يمكن أن تجد فرقًا بين الاستفهام بالرؤية في الوحي المكي والاستفهام بالرؤية في الوحي المدني، مع أن الصيغة تكاد تكون واحدة، فعندما ترى (أرأيتم) في الآيات المكية، فأنت تجد ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[القصص: 71]، ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾[الملك: 30]، فنحن نجد أن سياق السؤال عن الرؤية في الوحي المكي يرتبط- غالبًا- بالتهديد والوعيد، لأنه يفتح العيون التي لم تر نعم الله على النحو الذي ينبغي أن ترى عليه، وغفلت عن التأمل في هذه الرؤية لكي يقودها ذلك إلى النتيجة الطبيعية؛ في حين أننا يمكن أن نرى نفس الصيغة في الوحي المدني وهي تتحدث عن الوعد ونعم الله الكونية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج: 63]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾[النور: 43]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[النور: 41]، فنحن هنا مع أننا مع نفس الصيغة، فإن مدلولها الدقيق مختلف، فالمدلول في الوحي المكي كان وعيدًا للمخالفين الذين لم يروا، وفي الوحي المدني كان تذكيرا بالنعمة وتثبيتًا لحقائق الكون.

وعندما ننظر إلى هذه الآيات وتلك نجد غالبًا أن ما بعدها يكون من صور الإعجاز الكونية أو من الآيات الكونية لله مثل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾؛ وهذا يؤكد ما سبق أن أثرناه من العلاقة بين الكتابين، كتاب الله المعجز، القرآن، وكتاب الله المفتوح، الكون، وهي دعوة إلى التأمل وأن ينظر الإنسان داخل نفسه وخارجها إلى الحقائق الكونية،

ومن أجل هذا فإن النص القرآني- وخاصة في الوحي المكي- كان يشد النفس إلى أن تتأمل وأن ترى لكي تصل إلى القناعة، ويبدأ هذا التأمل من الكون الواسع حتى النفس البسيطة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾[الواقعة: 58] ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: 68] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: 71]، كل هذه الأشياء التي تمر أمام العين ولا تكاد ترى، لأنه كما عبر شاعر عن الفرق بين أن يمر شيء أمام عينيك وأن تراه، فقال:

إِنِّـي لَأَفتَـحُ عَينـي حـينَ أَفتَحُهـا عَلـى كَثـيرٍ وَلَكِـن لا أَرى أَحَـدا

ليس فتح العين دائمًا دليلاً على الرؤية، فيجب ألا نغفل أن رؤية الأرض التي نحرثها والنار التي نوقدها والماء الذي نشربه توقظ الحي وتسوق الدليل وتبني القناعة، وفي هذا الإطار تأتي معظم الآيات الكونية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج: 63] عندما تترجمها أنت إلى شيء بسيط، ليس المقصود أن واحدًا رأى قطرة ماء هبطت على أرض صالحة ثم مر زمن فاخضرت الأرض وأخرجت نباتًا، ليس هذا هو الذي يراد، ولكن نتيجة هذا التمثيل المتكامل؛ لماذا لم تر أيها الغافل ما يقود إليه هذا من نتيجة طبيعية، أن لهذا الكون خالقًا وأن لهذا الكون ربًّا؟ فسياق الآيات من خلال البحث عن آيات كونية في إطار الرؤية هو الذي يبرز هذا التعدد وهذا التنوع من خلال (أرأيتم) و(أرأيت) ويبرز متى تكون ذات دلالة في الوحي المكي على الوعيد ومتى تدل في الوحي المدني على الوعد ومتى تكون للتعبير عن الحقائق الكونية الثابتة التي تمر عليها العين وكأنها لم ترها.

ولكننا أحيانًا قد نجد في الوحي المدني «ألم تر» قد خرجت عن سياق الوعد إلى الوعيد، وذلك في الآيات التي تعرضت للمنافقين، حيث يلتحقون بأمثالهم من الكفار في الوحي المكي، فنجد مرة أخرى صيغة الوعيد ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: 14] تأتي في سورة المجادلة وهي سورة مدنية، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الحشر: 11]، فنجد صيغة الوعيد والتهديد التي تميز بها الوحي المكي فيما يتعلق بالكفار تعود مرة

أخرى في الوحي المدني حينما يتصل الأمر بالمنافقين؛ لأنهم يشكلون شريحة موازية ومجانسة لشريحة الكفار في الوحي المكي.

- **بين استفهام الرؤية والأمثولة في النص القرآني:**

وفي الحقيقة فإن الوحي القرآني استخدم الاستفهام من خلال الرؤية في صيغة (ألم تر) أو «ألم تر إلى» أو «ألم تر كيف»، وهي صيغ مختلفة، ولكن عند التأمل في هذه الصيغ المختلفة نجد أن جزءًا منها يستخدم فيما يمكن أن يسمى بالأمثولة أو سياق القصة الماضية للعظة والعبرة، أو ما يسمى بالأمثولة الماضية أو الماضوية، وجزءًا آخر يستخدم في الأمثولة المستقبلية التي لم تقع بعد، وأيضًا داخل هذا التقسيم بين أمثولة في الماضي وأمثولة في المستقبل، سوف نلاحظ أن هناك جزءًا من السياق يتصل بالقصة المدنية، وجزءًا آخر يتصل بالقصة المكية، وسوف نلاحظ أن هناك فروقًا دقيقة أحيانًا بين قصة تساق في الوحي المكي مصدرة بسؤال عن الرؤية وقصة تساق في الوحي المدني مصدرة أيضًا بسؤال عن الرؤية، ويمكن في الإجمال أن نقول إنك تجد صيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وصيغة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ وصيغة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ وهذه الأخيرة تتصل غالبًا بالوحي المكي ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[الفيل: 1]، بينما ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ جزء من صياغة الوحي المدني في غالب الحالات ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[البقرة: 243] تجدها صدرًا لقصة ماضوية، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾[البقرة: 246] تجد أنك بصدد أمثولة ماضوية في الوحي المدني.

- **استفهام الرؤية بين «كيف» و«إلى»:**

وهكذا فالاستفهام ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إذا تعدى الفعل بـ(كيف) يعطي دلالات تكون مرتبطة بالوحي المكي، وإذا تعدى بـ(إلى) تكون مرتبطة بالوحي المدني، فما السر الكائن وراء ارتباط (كيف) بالمكي دون المدني، و(إلى) بالمدني دون المكي؟ إذا لاحظنا آيات وردت في سورة الفجر، وهي سورة مكية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[الفجر: 6]، أو في سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، أو في سورة إبراهيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[إبراهيم: 24]– نجد السؤال مكونًا من مادتين، مادة الرؤية ومادة الكيفية التي تمر بها، والمسار الذي وصل إليه الأمر في هذه القصص المثارة مسار موغل في بابه، موغل في باب العقاب الشديد وهو الإفناء مثلاً في حالة قوم عاد أو التدمير في حالة أصحاب الفيل، أو بلوغ المدى حدًّا لا يصدق للوهلة الأولى كالكلمة التي كالشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فالمدى الذي تصل إليه الصورة مدى بعيد جدًّا أو مختلف في شدة الاتساع عن المدى العادي، فالسؤال هنا ليس متصلاً بأصل القصة ولكنه يتصل بالمدى الذي وصلت إليه نتائجها عقابًا أو تدميرًا أو ضربًا لمثَل، على عكس قصة أخرى يكون مورد العظة فيها أنها يراد التذكير بها لغرابتها لما تشتمل عليه من آيات وعبر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[البقرة: 243] هذه مسألة تحدث في كل العصور وقد تحدث للمخاطبين أيضًا، الناس عددهم كثير ومن شأنهم إذا اطمأنوا على إيمانهم ألا يخافوا الموت، لكنهم مع ذلك خوفًا من الموت خرجوا، وكذلك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾[البقرة: 246] ، وحكايات بني إسرائيل في القرآن لا تنتهي، وتلك واحدة من شرائحها الكثيرة، ليس فيها ما في قصة عاد أو أصحاب الفيل أو الرمز للكلمة بالشجرة من بلوغ المدى في الغرابة، فنحن هنا أمام الأمثولة مثل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[النساء: 77]، فهي تأتي كلها في إطار القصة العادية التي يراد منها أن تساق لكي تبعث في المستمع موقفًا حيًّا يدفعه إلى أن يتجنبه لسوئه أو أن يتأسى به لحسنه، لكن المواقف الأخرى السؤال فيها عن الكيفية، فهو سؤال مزدوج، ليس المراد به الحدث فقط، ولكن كيفية الحدث أيضًا، والوصول به إلى مدى معين.

- **الأمثولة المستقبلية وعبارة: «ولو ترى»:**

والنهج القرآني له ملامح معجزة في بناء الأمثولة الماضوية والمستقبلية، حيث تجد أن الأمثولة القرآنية عندما تتحدث عن شيء لم يحدث بعد، تجد السياق يقول (ولو ترى)، وهذا أولاً جزء من سعة اللغة في كيفية استخدام الفعل المضارع، والفعل

المضارع في اللغة هو الماضي والحاضر والمستقبل، فـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أعطت أمثولة في عمق التاريخ القديم، و﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾[الأنعام: 27] أعطت أمثولة في نهاية المستقبل المنظور أو غير المنظور، فكل الآيات التي تسوق أمثولة مستقبلية في النص القرآني تتصدرها (ولو) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾[الأنعام: 30]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾[الأنعام: 93]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الأنفال: 50]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[السجدة: 12]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[سبأ: 31]، كلها مشاهد من مشاهد القيامة، ومشاهد الأمثولة المستقبلية، اختصها القرآن الكريم بأمثولة تتصدرها عبارة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾؛ لكي تعطي دلالة مخالفة لـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، أو ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ على حسب توزيعاتها في الوحي المكي أو المدني.

نلاحظ في المدلول المستقبلي لهذا الفعل (ولو ترى) نلاحظ أنه لم يأت حرف الجر (إلى) بعده، فلم نجد أبدًا (ولو ترى إلى)، وهذا الشيء لم يحدث لأنه – كما قلنا– التفسير اللغوي لعبارة (ألم تر إلى) هل انتهى علمك إلى كذا، وهذه (انتهاء العلم) متصلة بمكان، لكن هذا شيء مازال في الغيب، فأقصى ما يمكن أن يثار في الذاكرة الإنسانية هو (لو ترى) لكي تتخيل المشهد الذي يمكن أن يترتب عندما يقع هذا في أمثولة المستقبل، فهذا جزء من علم الله، أما الآخر (ألم تر إلى) فهذا جزء من العلم الذي أعطاه الله للإنسانية في تجاربها، وربما لم ينته إليه علمك أنت، فعليك أن تسعى للحصول عليه؛ لكي تتأمله وتتدبره وتستخلص النتائج المترتبة عليه.

ثانيًا: حاسة السمع

لا شك أن القرآن الكريم بإعجازه ودقته تناول قضية السمع، شأنه في ذلك شأن قضية البصر، بزوايا متعددة، نكتشف نحن جميعًا عند القراءة جزءًا من أسرارها جيلاً بعد جيل.

والسمع حاسة شديدة الأهمية، في خلق الإنسان، شديدة الأهمية كنافذة من نوافذ المعرفة، شديدة الأهمية كنافذة من نوافذ الوجدان، وهي أيضًا كمسئولية يُعطى الإنسان مفتاحها، وعليه أن يتعلم درجات استخدامها، وعليه أن يتعلم كيفية إدارة هذه الجارحة لكي يُبنى على هذا النمط من إدارة الجوارح، المسئولية التي يثاب أو يُعاقب عليها الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: 36]..

وهنا تكمن فكرة مسئولية الكائن الحي عن جارحة أعطاها الله له، وعليه أن يتحمل نتيجة حسن أو سوء استخدامها.. والقرآن الكريم بصفة عامة استخدم مفردات السمع ربما أكثر من مفردات الإبصار، في الإحصاء الأول نجد أن السمع وما يتعلق به من مفردات يكاد يبلغ المائة، على حين تقل مفردات الإبصار عن ذلك قليلاً.. والسمع أيضًا يكاد يتقدم الإبصار في كل مراحل ذكره «فالسمع والبصر، والسميع والبصير»...

- **بين السمع والبصر:**

ولعل ذلك يكون مثار تساؤل.. أي لماذا قُدِّم السمع على البصر في معظم مرات وروده في القرآن الكريم؟

وفي الحقيقة أن علماء التشريح وعلماء الجسد الإنساني يستطيعون أن يدلوا بمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر، لكن نافذة السمع كنافذة ربما تسبق –

باعتبارها مدخلاً لعلم الإنسان وتشكيل وجدانه- نافذة البصر، ربما حتى منذ الطفولة المبكرة، ولا أدري إن كان علماء الأجنة لديهم مقولات عن تولد الحواس بترتيب معين أم لا، لكننا حتى فيما نراه من حياتنا العادية، فيما نراه من مشاعر الطفولة، عندما يتشكل الطفل أمامنا في أسابيعه وشهوره الأولى، فإن معظم مدركاته يتلقاها من خلال السمع، فالصوت هو الذي يفزعه، والصوت هو الذي يُنيمه، والصوت هو الذي يهدئه، والصوت هو الذي يثيره، قبل أن يُشكل حكمًا ما من طريق البصر.

الطفل يتعرف من خلال السمع على نبضات قلب الأم فيستريح إليها قبل أن يعرف وجهها، ويتعرف من خلال حاسة السمع على صوتها وصوت الأب فيأنس إليهما قبل أن يتعرف على الوجوه وتفاصيلها.. فالسمع مدخل رئيسي من مداخل المعرفة.

ولعل الإحاطة أو الشمولية تكون أوقع بالنسبة للسمع منها بالبصر، فالبصر ذو اتجاه واحد، فلا يرى الإنسان إلا من أمامه ولكنه يسمع من أي اتجاه.

والبصر أيضًا اتجاهه محدود.. عندما يحيط بك الحاجز المرئي في أي موقع كنت فيه فبصرك يرتد، لكن السمع لا يعترف بالحواجز، المسموع يقفز إليك من وراء الجدران، والسمع يصلك من الشارع وأنت في غرفتك، والسمع يصلك من بعيد.. هناك كثير جدًا من نوافذ المعرفة يسبق فيها السمع البصر، ولعل هذا جزء من حكمة العلي القدير في الاهتمام بالسمع وتقديمه على البصر.

- **بين السمع الإنساني والإلهي:**

السمع أيضًا حقل كبير متشعب، هنالك السمع في المجالات الإنسانية وهنالك السمع في المجالات الإلهية، فالصفة في جذرها اللغوي صفة مشتركة بطريقة ما سواء في نسبة الفعل في صيغته الماضية أو في صيغته المضارعة أو في إسناده للمفرد أو في إسناده للجماعة، يستخدم مع الإنسان [سمع وسمعنا وسمعتم ونسمع ويسمعون] والإنسان يسمع ويتصف بصفة السماع، والله جل وعلا يتصف بالسمع ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾[المجادلة: 1].. ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ..﴾ [آل عمران: 181] ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 224]. وهناك درجات أخرى من درجات السمع، هنالك

سميع، وهناك سَمَّاع.. وطريقة استخدام هذه الصفات في القرآن، وطريقة استخدام هذه المادة اللغوية مجتمعة أو متفرقة، مقترنة بغيرها أو منفردة، موجبة أو سالبة، كل هذه وسائل صالحة لإثارة التساؤل حولها، والاستفادة من الطريقة المعجزة للقرآن الكريم في صياغتها.

- **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ:**

ونحن نتحدث عن السمع كنافذة من نوافذ التلقي والعلم بالنسبة للإنسان وكيف تناول القرآن هذه الحاسة، نتوقف عند بعض المقارنات بين السمع والبصر والتي وردت في القرآن، فالسمع والبصر وردا مقترنين في مواضع عدة، ولكن أحيانًا قُدم السمع على البصر، وقُدم أحيانًا البصر على السمع، فإذا نظرنا إلى سورة الكهف مثلاً نجد قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾[الكهف: 26] وعلى العكس من ذلك نجد في سورة مريم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: 38] ونأمل أن نتوقف مع هذين الموضوعين ومع غيرهما من المواضع التي فيها مثل هذا التقديم والتأخير.

وهاتان الصيغتان هما الصيغتان الوحيدتان في القرآن في هذا السياق من هذه المادة، واللتان وردتا في صيغة أفعل في صورة من صوره، ومعلوم أن أفعل التفضيل في اللغة، وأيضًا صيغة التعجب ترد على مستويات متعددة يقال: هو أجمل من فلان وأطول منه، ويقال في التعجب ما أجمله، ما أطوله، ما أعظمه.. لكن أيضًا من الصيغ التي تعلو على الصيغة المعتادة ما أعظمه، ما أجمله، ما أكبره أن يقال: أعظِمْ به، وأجْمِلْ به وأكبر به، فصيغة أفعِل به أو أفعِلْ بهم أو أفعِلْ بها صيغة تعطي معنى ساميًا عظيمًا من معاني التعجب في الشيء.

في هذا السياق جاءت الصيغة (أبصر به)، و(أسمع)، هذه الصيغة التي وردت في سورة الكهف، منسوبة إلى الذات الإلهية، ومرة أخرى في سورة مريم متحدثة عن الإنسان.. ، مرة كانت متصلة بالماضي، حيث كانت تحكي حكاية من حكايات التاريخ القديم، حكاية أهل الكهف: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف: 25، 26] صيغة التعجب هنا متصلة

بقدرة الذات الإلهية على الإحاطة التي يستوعب العقل البشري فقط ما يستطيع استيعابه منها، لكنها إحاطة بلا حدود في مجال الإبصار والإسماع، مجال رعاية طائفة من الناس في ظروف غير عادية، في ظاهرة خارقة، ينامون ثلاثمائة سنين ويزدادون تسعًا، وهم خلال ذلك محاطون بعناية من لا يحد بصره ولا يُحد سمعه.. تأتي الصيغة بهذا النمط التعجبي، وقد تقدم فيها الإبصار على الإسماع.

ربما الذي يلفتنا إلى هذا ورود الصيغة الثانية التي جاءت في سورة مريم، وكانت تتحدث حول ظن المخالفين بيوم القيامة، وهذا الظن يقودهم إلى أن يقعوا في دائرة التوعد.. هذا التوعد بما سوف يحدث لهم في المستقبل.. تأتي الآيات ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا..﴾[مريم: 37، 38]، صيغة التعجب هنا صيغة تهكمية لهؤلاء الذين سيسمعون ما لم يسمعوا وسيبصرون ما لم يبصروا، ويا روعة ما سيسمعون! ويا روعة ما سيبصرون! لكننا إذا تأملنا في مسألة: لماذا يأتي السماع هنا قبل الإبصار؟ لعل من مسائل التهويل المتصلة بالدار الآخرة أننا على أية حال نسمع عنها قبل أن نراها، ونسمع الوعيد قبل أن نعيشه، ونسمع أيضًا عن النعيم قبل أن نعيشه، فكل ما يتصل بالمستقبل يبدو السماع فيه سابقًا على الإبصار، بصفة عامة.. فيوم المشهد العظيم الذي يقال فيه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ يتناسب معه أن يُقدم فيه السماع المتعجب منه، المُتهكم به على الإبصار.. إن حواسهم تُكبَّر وتوضع تحت مجهر لكي تسمع الهول، هول النار، وصوتها قبل أن ترى مشهدها، وهول قيام الساعة قبل أن ترى دقائقها، وهول سماع نذير العذاب قبل أن يقعوا فيه، لكن المشهد الآخر الذي اتصل بالذات الإلهية كان متصلاً بالماضي، كان الإبصار فيه والإسماع صورتين من صور العناية التي يتم التعجب من طاقاتها بلا حدود، وهاتان هما الصيغتان الوحيدتان اللتان وردتا في باب التعجب من حاسة السمع في القرآن الكريم.

ونستطيع أن نقول أيضًا إن البصر أخفى من السمع، ومن ثم هنا في مجال القدرة الإلهية فإننا نشير إلى الأشد أهمية، أو الأشد خطرًا في مجال إظهار القدرة، أن الله يعرف الأخفى والأدق، والأخفى متعلق بالبصر.

• **سمَّاعون:**

وهناك صيغة أخرى نود أن نتوقف معها، وخاصة أنها وردت مرتين أيضًا، وهي «سمَّاعون»، وفيمن استخدمت هذه الصيغة.

ونلاحظ أولاً: أن صيغة سَمَّاع من حيث البنية اللغوية صيغة مبالغة على وزن فَعَّال، والمبالغة في الأصل تعطي المعنى الأصلي وتزيد عليه، فدائمًا صيغ المبالغة بأشكالها المختلفة تقدم ما يقدم اسم الفاعل، ثم تزيد عليه زيادة في المعنى، والأصل في هذه الزيادة أن تكون محايدة ؛ فإذا كان إنسان يسمع، فهو سامع، فإذا أطلقنا عليه (سمَّاع)، فالأصل في دلالتها أن تعنى: شديد السمع، لكن القرآن الكريم يستخدم الأشياء استخدامًا دقيقًا، فصيغة (سمَّاع) عندما تأتي للمبالغة تأتي في المبالغة المذمومة، فالسمَّاع كأكَّال، ككذَّاب صيغ على فعَّال تأتي للمبالغة غير المحمودة، فتعطي المعنى الأصلي والزيادة عليه في الاتجاه غير المحمود، والذين أتت فيهم هذه الصيغة في القرآن الكريم في الموضعين اللذين أشرنا إليهما كانوا مرة اليهود، وكانوا مرة أخرى المنافقين، جاءت في اليهود متصلة بقضية من قضاياهم الأولى في بداية الاحتكاك بينهم وبين المسلمين في المدينة، وبعد عقد المعاهدة التي تتطلب منهم أن يكونوا أعضاء في الجماعة ويجري عليهم القانون السائد، وهم يحتجون دائمًا بقانونهم القديم، وحدث الاصطدام الأول عندما حدثت جريمة من جرائم الزنا، طرفاها يهوديان محصنان، والقاعدة تقول إن هؤلاء يطبق عليهم الرجم، لكنهم وعندما جاءوا لكي يطبق عليهم الحكم بدأ اليهود أنفسهم يشيعون أن الحكم المطلوب هنا هو الجلد وليس الرجم، وأنه لم يرد في كتبهم القديمة شيء عن الرجم، وعندما تم الاحتكام إلى واحد منهم من أحبارهم، أجاب بأن الحكم القديم هو الرجم وليس الجلد، هؤلاء الذين يريدون أن يحرفوا القول عن مواضعه، ويريدون أن يشيعوا القول المغلوط، وتلك صفة نبه القرآن إليها بالنسبة لليهود منذ القدم وحتى الآن، فكرة صناعة تحريف الكلام، وصناعة صرف الشيء عن مدلوله الأساسي، وإشاعة ما يعتقدون هم، أو يريدون أن يصلوا إليه، ولو كان ضد الواقع، في هذا الموقع جاءت الآية القرآنية التي تتحدث عن هؤلاء الذين هادوا ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ

لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ ....﴾[المائدة: 41] ففي هذا الإطار جاءت صيغة فعَّال الأولى لكي تنبه إلى أن بضاعة هذه الطائفة هي تحريف الكلم والمبالغة في سماع السوء وإسماعه.

وأما الموقف الثاني الذي جاءت فيه صيغة فعال الثانية، فقد كان عند الحديث عن غزوة تبوك، وعن الذين تخلفوا فيها: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[التوبة: 47] هذه المرة الصفة ليست ملصقة بالمنافقين، ولكن محذرة من الذين يمكن أن يستمعوا إليهم، والقرآن الكريم جسَّد فكرة محاولة بث القول الكاذب في طريقة تصويرية تهكمية؛ من خلال «أوضعوا خلالكم» فكرة أوضعوا.. الركب الذي يتحرك قاصدًا الغزو مليء بالنوق والجمال، ومجموعة صغيرة تتحرك على نياقها الخاصة، ثم تُسرع لكي تندس في الصفوف، وتلقي هنا إشارة وهناك إشاعة، وهذه الإشاعة تتم من خلال الإسراع في الحركة، وفيكم سماعون لهم، فسماعون هنا صيغة مبالغة وجرس تحذير من أصداء القول الذي يتاجر فيه المنافقون كما يتاجر فيه اليهود، وأوضعوا هنا معناها أسرعوا، أو أسرعوا بنياقهم لكي يندسوا بين الصفوف ويبثوا دعاياتهم السامية.. والحركة هنا حركة مجسدة لتحرك الجماعة وانتشار هذا الطابور، يحاول أن يندس بين الصفوف ويسرع لكي يبث هنا كلمة وهناك كلمة، وفيكم سماعون لهم، فصيغة المبالغة جاءت في هذين الموضعين.

- **السماع والنصر والهزيمة:**

ونحن نتعرض لقضية السمع في القرآن الكريم نتوقف مع ما أشار به القرآن الكريم إلى غزوة بدر، وكانت للسماع أهمية، فإن المؤمنين دعوا الله سبحانه وتعالى، وسمع الله دعاءهم، واستجاب لهم، وتمثلت هذه الاستجابة بالمد الإلهي بالملائكة، وقد تناولت سورة الأنفال هذه القضية -ودور حاسة السمع فيها- تناولاً عظيمًا.

والحقيقة أنه في هذا المشهد الرائع الذي يُشكِّل الصوت فيه شيئًا مهمًّا جدًّا بدءًا من دعاء الرسول ﷺ لهذه الفئة القليلة التي يدعو الله ألا تهلك، لأنه لو هلكت لن يُعبد الله بعد اليوم، ومن هذه الاستغاثة التي تُرفع من كل مكان، ومن الأصوات

الخفية التي تُبشر بالنصر، هذه المسألة عندما يعبر القرآن الكريم عنها يتخذها في نهاية المطاف فرصة للتأكيد على معنى السمع، هذا المعنى المتبادل بين الذين يدعون الله فيسمع لهم، بل هم يستغيثون: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال: 9] وهذا هو المنتج الرئيسي لهذه الصورة السمعية الكبرى.

وفي هذا يتجلى المفتتح، هذان الطرفان المتقاربان من خلال حرف «إذ» هذه الأداة السريعة جدًّا التي تدل على الظرفية الحالية والفاء التي تدل على التجاوب في اللحظة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ حتى دون تفصيل لمعنى الاستغاثة وما يدخل فيها، أو ماذا يقول المستغيثون، ودون أي إبطاء للاستجابة.. هذه هي حلقة السماع المثلى الأولى.. لأن الله جل وعلا كما تقول الآيات التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ حتى عندما تبين الآيات ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: 17]، وهذه إذن نتيجة اللوحة الأولى العملية لفكرة الاستغاثة للمكروبين الخائفين من الهزيمة، هي اندحار أعدائهم وقتلهم، وهذا القتل، لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم.. ومن العجيب أنه لم يُقل في هذا السياق: إن الله قوي، أو إن الله قادر، وإنما ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأن هذا هو رد الصدى على «إذ تستغيثون فاستجاب».

ومن أجل هذا فإنه بعد هذا المشهد العظيم جاء المشهد التالي الذي يعلِّم بقية السلوك في مفهوم سماع الصوت والاستجابة له، الدرس المباشر لهذا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الأنفال: 20-22].

الصورة المباشرة بعد هذا تتحدث عن فكرة معنى السمع، وهي تجسد صورة قوية جدًّا؛ لأنه ليس السمع مجرد ورود الصوت على الأذن وتلقي الأذن له، فكما أن هناك نظرًا ورؤية، وكما أن هنالك إنسانًا يرى ولا يرى، هناك إنسان يسمع ولا يسمع، لأن الحواس ليست مجرد نهاية المطاف، الحواس هي بداية المطاف،

هي النوافذ.. من أجل هذا كانت تختتم الأمور دائمًا بالأفئدة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾[الإسراء: 36] بمعنى أن اكتمال عمل الحاسة هو أن تقاد المعلومة من النافذة الخارجية للجسد إلى مركزه لكي يستقبل ولكي يصدر التدبر، ولكي يصدر التأمل، فالمسألة هنا أن هنالك أناسًا يقولون سمعنا وهم لا يسمعون، السماع في هذه الحالة أصبح مجرد صوت، ومجرد ضجيج ومجرد شوشرة، وأصبح أيضًا عادة تعتادها الأذن، ومن أجل هذا فإن أصول التربية التي تُعلَّم للناس أنه لا ينبغي أن تتعود الأذن أن تسمع ولا تستجيب فيظل الكلام نفسه لا معنى له، إن السماع الذي يُلقى مرة بعد مرة، والجملة التي تقال يومًا بعد يوم تصبح أمرًا مألوفًا ومبتذلاً، لكن التدرج في أن يتحول السماع من مجرد أصوات تدخل من نافذة الجسم الخارجي إلى مدركات فتستقر في القلب والفؤاد، في العقل، وتتحول إلى «وأطيعوا» وهذا المدخل هو الذي سنرى مقابلات له فيما بعد.. أطيعوا إذا سمعتم.. ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 20] ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأنفال: 21] سوف تأتي مدخلاً لطائفة أخرى، سوف نرى بعضهم يقولون سمعنا وعصينا، وبعضهم يقولون ما سمعنا بهذا..

فهذه الصورة في موقف مشهد الصوت الرهيب في غزوة بدر، تبين فكرة إعطاء النموذج الأمثل: «إذ تستغيثون فاستجاب»، سرعة الربط بين الصوت ونتائجه، على ضرورة الربط بين السماع والتمثل والطاعة للرسول الذي يجسد هذه التعاليم.

وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾.. [الأنفال: 22] تجد أن الوصف بالصم والبكم هنا في هذا الوضع له علاقة بما نتناوله؛ فنحن هنا مع الصورة المقابلة المتهكمة، وهنا التعبير بالدواب مقصود، لأن الدواب تشترك مع الآدميين في السماع، لكنها تسمع هذا السماع الحسي، ولا تصل في إدراك الأصوات بالمعنى التأملي العقلي إلى ما نصل إليه، إذا كنتم تسمعون وأنتم لا تسمعون، فلتشتركوا مع هذه الحيوانات والدواب في حواسها الدنيا.. هذه مسألة مقصودة في هذا السياق، وإن كانت هذه الدواب ليست شريرة بطبيعتها، فهم أشر في هذه الحالة منها.

- **السمع بين الإطلاق والتقييد:**

في غالب الأمر في الحديث عن حاسة السمع تستخدم الصيغة القرآنية الفعل المضارع وغالبًا يكون المفعول به محذوفًا، والفعل المضارع في اللغة العربية من الأفعال واسعة الدلالة، فالفعل المضارع يدل على الحاضر والمستقبل، ولكنه أيضًا يدل على الحالة ويتحدث عن الصفة الأساسية والغريزة والعادة والملكة، فهو يخرج أحيانًا عن إطار الزمان، فأنت عندما تتحدث عن تعريف الإنسان بأنه حيوان يفكر ويتكلم ويضحك ويمشي لا تقول: يفكر في ماذا؟ ويقول ماذا؟ ويمشي إلى أين؟، ولكنك عندما تستخدم الفعل المضارع على هذا النحو، تريد أن تقول إن الإنسان من طبيعته التفكير والضحك والكلام.. هذه الصيغة تعطي المعنى الأساسي للصيغة دون ربطها بزمن الحدوث من ناحية، ودون ربطها أيضًا بمفعول به يقع عليه الفعل من ناحية ثانية، فتعطي أصل الصفة، والقرآن الكريم استخدم هذه الصفة.. صفة السمع، وعندما تصاغ في صيغة الفعل المضارع مسندة عادة للجماعة، وفي كثير من الأحيان للجماعة الغائبة.. كقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأعراف: 100] ، و﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾..[الأعراف: 179] هذه الحالات تتحدث عن انعدام الغريزة أو انعدام الاستفادة من الحاسة بصفة عامة.. وعندما يسخر يقول: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ أي أن أداة السمع موجودة، وليس هناك أية إشارة إلى عطب هذه الآذان، وعندما يتم العطب يشار إليه باستعمال الصم البكم، لكن هذه الآذان موجودة، ولكن لهم آذان لا يسمعون بها، والمشكلة هي العودة مرة أخرى إلى تذكير الإنسان بأنه لا يكفي أن توجد الأداة، ولا يكفي أن توجد المادة الموجهة إليها، ولا يكفي أن توجد الشرائط المطلوبة للاستفادة منها، لكن لابد من إعمال العقل والتفكير والتدبر والاستيعاب، فهؤلاء الناس حرموا نعمة استغلال الحاسة التي أعطاها الله إياهم، وأطلق القرآن ذلك في كثير من آياته عندما يريد أن يصفهم بالبلادة ويصفهم بعدم القدرة على استغلال ما أعطاهم الله من نعم.

والسمع نافذة، أو هو النافذة الأساسية، واللغة تتحدث عن هذا كثيرًا، أي عن استخدام الحاسة، لكن دون الاستفادة مما يدخل في دائرتها، ومما جاء من هذا في الشعر على سبيل التهكم قول أحد الشعراء(دعبل الخزاعي):

إني لأفتـــح عيني حيـــن أفتحها علـــى كثيـــر ولكـــن لا أرى أحدا

إذن ما قيمة ما يدخل في الدائرة أيضًا عندما يفتح السمع.. ولكن لا تسمع شيئًا؟ وأنت في حياتك العادية عندما تريد أن تلغي كثيرًا مما سمعت في مجلس: تقول: تحدث أناس، وقال هذا ....، وقال ذاك ....، تقول: إنك لم تستمع إلى شيء.. أو لم أسمع شيئًا.. أي لم يدخل من هذا الذي سمعته في ذهني وعقلي شيء يستحق الاهتمام.. هؤلاء الناس عُطلت مداركهم.. يتلى عليهم الذكر، ويتلى عليهم القرآن، ويساق إليهم الهدى، ولكنهم لا يستفيدون منه، لأن هذه الأبواب التي من شأنها أن تكون مفتوحة أوصدت، ومن أجل هذا قال القرآن في بعض الأمور: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأعراف: 100] فكرة الطبع على القلب.. أنت تلاحظ أن عدم السماع لم يأت من إغلاق الأذن، ولكنه أتى من الطبع على القلب.. يعني طُبع على القلب، فهو لا يسمع.. بمعنى أن الأذن مفتوحة.. لكن يدخل إليها أشياء لا تنفذ إلى القلب.. وهذا نوع من بلادة الشعور.. ومن أجل هذا ينبغي أن يستفاد من ذلك في إطار تربوي.. ينبغي ألا يجعل الإنسان المراكز الرئيسية للإدراك والشعور تتبلد وتموت؛ لأنها في هذه الحالة لن تستفيد حتى مما سيرد إليها من مدركات.. لأن هذه المدركات شرط الإفادة منها أن يكون المركز الرئيسي حيًّا، فإذا طبع على القلب فأنت لا تسمع، وإذا طبع على القلب فأنت لا تبصر، مع أن المدركات الحسية التي من شأنها أن تسمع وتبصر تدخل إلى الجوارح، ولكنها لا تصل إلى المركز، فإذا طبع على القلب فلا شيء، ويلجأ القرآن في هذه الحالة إلى التعبير بعدم السماع المطلق دون نسبة إلى مفعول معين، ودون ربط بزمن محدد.

- **السمع بين الإثبات والنفي:**

ونلاحظ أن القرآن يشير أيضًا إلى أن عدم السماع ليس دائمًا سبة للإنسان، ولكنه في بعض الأحيان قد يكون ميزة تميزه، أو نعمة من النعم، ويحدث هذا في إطار استخدام الجملة القرآنية لفعل السماع منفيًّا، لكنه منفي في إطار الإسناد إلى مسموع معين.. ينفي سماع شيء ما.. كأننا- بالقياس إلى ما سبق أن أثير من

ورود صيغة قرآنية تجعل نفي السماع مطلقًا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي كأنها تنصرف إلى أصل حاسة السماع.. انطلاقًا من عدم استفادة السامع من فحوى ما يسمع.

نجد مواقف أخرى في القرآن الكريم تنفي سماع شيء معين، ونفي سماع شيء معين قد يكون خيرًا وقد يكون شرًّا، فنفي سماع الخير شر، ونفي سماع الشر خير، فالمعنى المنفي دائمًا يعطي عكس المفعول به، فالذين لا يسمعون الهدى يحرمون من خير، والذين لا يسمعون اللغو يسلمون من شر، وصيغ القرآن الكريم قد تحدثت عن الأمرين.. فهي تصف المستكبرين الذين تتلى عليهم الآيات، وعندما يسمعون القرآن يولون مستكبرين كأنهم لم يسمعوا كما ورد في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[لقمان: 7] وهذه الصيغة تتكرر كثيرًا في القرآن الكريم مسندة إلى ضمير الإفراد أو إلى ضمير الجمع، فمن شأن المستكبر الذي لا يريد أن يستفيد مما يُلقى إليه أن ينصرف وكأنه لم يسمع شيئًا.

لكن أحيانًا في المقابل قد نجد فريق المؤمنين يحرمون من سماع شيء فيه لغو، وعندما يوصف المناخ الصافي الذي يوجدون فيه في الجنة يوصف بأنهم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾[النبأ: 35] وتتوالى آيات من هذا النوع تبين أن عدم سماع الشر يجعل هذا المناخ صافيًا بالنسبة لهم، فالقرآن يستخدم السماع المنفي النسبي كما استخدم السماع المنفي المطلق.. كل شيء في مجاله.. فالسماع المنفي المطلق انصرف إلى أصل الغريزة والحاسة، والسماع المنفي النسبي انصرف كل في مكانه.. عدم سماع الشر خير، وعدم سماع الخير شر.

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[الأنبياء: 102] وهو يشير إلى النار، ولنا مع كلمة ﴿حَسِيسَهَا﴾ هنا وقفة مهمة فالحقيقة أن الألفاظ القرآنية لا تتوقف في أداء المعنى عند حدود المعنى الأولى، ولكن تنقل أحيانًا بالدلالة الصوتية شيئًا يكاد يكون قريبًا من الصورة.. استخدامات القرآن للحروف- خاصة بعض حروف الصفير- تجعلك تكاد تتحسس أنت المعنى.. وعندما تسمع حسيس النار.. تكاد تسمع القضقضة المنبعثة من صوت هبوب النار، ويكاد يكون توالي الحاء والسين، كل في موقعه بهذه الطريقة يكون مجسدًا ومعبرًا للصورة

الأساسية.. ربما يذكرنا هذا حتى بالاستخدامات الأساسية مثلاً في سورة الناس.. شدة استخدام السين في ألفاظ مثل: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.. [الناس: 4-6] وأنت تسمع الهمس الداخلي للوسوسة.. معبرًا عنها من خلال صوت السين المتكرر حتى إنك لو قرأت مثل هذه الآيات سرًّا لا بد أن يخرج هذا الصوت جهرًا.. الذي يقرأ في سره «حسيسها» لابد أن يخرج من فمه صوت التقاء الحاء بالسين، كأن قضقضة النار وصوتها تتجسد من خلال هذه الحروف.. وهذا جزء من بلاغة ألفاظ القرآن الكريم التي ترد في كل آية وكل سورة بطريقتها الخاصة.

ونلاحظ أحيانًا أن القرآن قد استخدم صيغة خاصة في موضع بعينه، مثل الفعل «يَسَّمَّع» في قوله تعالى واصفًا الشياطين أو الجن ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[الصافات: 8] وهذه الصيغة القرآنية «يَسَّمَّع» تتعدى الدلالة على المعنى إلى تجسيد الحالة، وكأنها توحي بمعنى التلصص، ومحاولة التسمع في خفاء.. حتى هذه يحرمون منها بأنهم لا يُعطون فرصة السماع أو التسمع أو التسلل من خلال هذه الصيغة، ويُرد عليهم بالقذف من كل جانب، وهذا نوع من حرمانهم من الفائدة التي يريدون الحصول عليها، أو كانوا ينالونها من قبل....

- **فعل السمع وأطراف الدائرة بين الاستجابة والرفض:**

وحاسة السمع تختلف قليلاً عن حاسة البصر.. من حيث العلاقة مع المسموع أو المرئي.. مثلاً أنت تبصر، وليس مطلوبًا منك إلا أن تحدث رد فعل لنفسك، أي أنك تبصر حفرة فلا تقع فيها، وتبصر طريقًا مستقيمًا فتسير فيه، وتبصر شيئًا يسرك فتبتسم، وتبصر شيئًا يحزنك فتعبس، هذه ردود أفعال مطلوبة للكائن، لكن السمع شراكة بين اثنين.. أنت تسمع دعاءً، فتقول: نعم، أو لا، أو تعرض، فالسمع حاسة ناتجة عن صوت، والصوت يوجه لعاقل بالضرورة، فأنت لا تنادي شارعًا، ولا تنادي مبنى ولا تنادي مائدة.. لكنك ترى مائدةً، ترى شارعًا، وهكذا، فالمفعول به في فعل الرؤية ليس من الضروري أن يرد، أنت ترى، وليس بالضرورة أن يكون المرئي يراك، ليست فيه مشاركة، لكن فعل السماع لا تتم دائرته إلا بالطرف الآخر،

أنت تُسْمِعُ فتجاب، فتطاع أو تعصى، أو يُعرض عنك، وهكذا، ففعل السماع من أفعال الدائرة المطلوبة من طرفين، ولهذا دائمًا نجد القرآن لا يقول: (أبصرنا ف...)، لكن يقول: (سمعنا ف...)، مثل ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[البقرة: 93]، أو ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[البقرة: 285] وهاتان الآيتان تمثلان موقفين من السماع، موقف المؤمنين الذين يطيعون، وموقف المعاندين الذين يعصون.

وفي شريحة الطاعة هنالك دائمًا الإشارة إلى أطعنا ماذا، أو سمعنا ماذا، لأن عندنا من ناحية التشريح اللغوي احتمالات..: سمعت نداءك فأطعته: أو سمعت نداءك فعصيته، نحن هنا إذن نحصر السماع ورد الفعل عليه في نداء معين، لكن أحيانًا عندما يتعلق الأمر بجذور قضية عقائدية، بمبدأ أو بدعوة في جملتها تكرر صباحًا ومساءً وتفصيلاً: يقال سمعنا فأطعنا، أو سمعنا فعصينا.. أي هناك مبدأ التسليم المطلق الذي وضحته آيات قرآنية.. مثل الآية الكريمة في سورة البقرة ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ ...﴾[البقرة: 285] هنا فكرة أن جملة هذه الأمور يكون الرد العام فيها هو السماع العام، هو الطاعة العامة.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ..﴾[النور: 51] وهنا يكمن المبدأ العام لفكرة التسليم بجملة الأمر والدخول في تفصيلاتها فيما بعد.

وهذه صورة تقابل الصورة الأخرى، صورة الذين يقولون من حيث المبدأ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وهذه الصورة غالبًا ما يكون على رأس القائمة فيها اليهود، فالسماع المقترن دائمًا بالعصيان حتى دون الدخول في تفصيلات يكون غالبًا موجهًا إلى اليهود.. سواء اتصل ذلك بحكاية تاريخهم القديم أم اتصل ذلك بردهم على الدعوة الإسلامية.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا..﴾ [البقرة: 93] وقد لا يعبر عن الطاعة بلفظ الطاعة نفسه، ولهذا نجد قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى

لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ..﴾[آل عمران: 193] ولم يقل فأطعنا، وإن كانت تدل على الطاعة، وذلك لأن الدعوة هنا مقترنة بأن آمنوا، فكانت الإجابة: ﴿فَـَٔامَنَّا ۚ﴾.

أي سمعوا شيئًا بعينه، كما ورد عن الجن في سورة الجن: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[الجن: 1، 2] أي حددوا المسموع هنا، والحقيقة أننا نألف معنى السماع في عالم الإنس، فعندما تقول: سمعت وسمعت في عالم الإنس، فنحن نعرف السماع وذبذبات الصوت.. لكن عندما نتحدث عن الجن نحن نسمع ما الذي يُسمع، ولا نعرف معنى سمعنا في عالم الجن.. لأنه قد يكون لدى الجن طاقة أن يسمع درجات من الصوت لا نسمعها.. فمن أجل هذا كان من المنطقي أن يُحدد المسموع لكي يتم الرد عليه، فهم سمعوا قرآنًا عجبًا، يهدي إلى الرشد، وهذه المرة ﴿ءَامَنَّا﴾ به تمامًا، كما جاءت الإجابة ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾[آل عمران: 193] فالتحديد هنا نابع من طبيعة السامعين، واختلافهم عن المفهوم العام للسماع كما ندركه في عالم الناس..

ونلاحظ هنا تنكير ﴿قُرْءَانًا﴾ بهذه الكيفية، ولم يقولوا إنا سمعنا القرآن وربما تكون الصفة اللاحقة للقرآن هي التي تبيح هذا النوع من التنكير الجميل، ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ يعني أولاً: كأنهم فوجئوا.. أي سمعوا نمطًا من القول العظيم العجيب، فآمنوا به، القرآن هنا بمعنى الكتاب نفسه أيضًا فهو إشارة مباشرة إلى القرآن...

ونتوقف الآن عند الفريق الثاني من المخاطبين بالسماع، وهم الذين قالوا سمعنا وعصينا، نتوقف عند قول الحق -تبارك وتعالى- عن فريق من هؤلاء: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ..﴾[البقرة: 93] هذا الفريق الذي أجاب إجابة مطلقة: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، حتى لم يحددوا ما سمعوه وما عصوه مما سمعوه، أي كل ما سمعوه، قد عصوه العصيان المطلق.

ومسألة السماع والعصيان عند اليهود تحدد جانبًا تاريخيًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾، وهذه مسألة تتعلق بالتاريخ القديم وبعنادهم السابق مع الأنبياء السابقين، وأن هذا العناد عندهم يجعلهم يصرون على الرأي.. لم يقولوا لم نسمع، أو لم تصلنا

الدعوة، أو لم نتدبر، لكنهم قالوا: سمعنا وعصينا.. بكل ما يترتب على ذلك، بمعنى سمعنا وأدركنا واستوعبنا، وفهمنا ورفضنا، وهذا نوع من الإصرار الشديد، وهذا النوع نابع عندهم من عنادهم من ناحية، ومن خلطهم نمطًا من الإيمان والكفر، هم يقولون إن إيمانهم بعبادة عجلٍ أشربوا حبه في القلوب يأمرهم بهذا، والقرآن يرد عليهم بأن هذا النمط مما يسمونه إيمانًا هو كفر، وليس هذا ما يأمر به الإيمان، فهم لا يكتفون فقط في مشهد واحد بالسماع والعصيان، ولكنهم يصرون على السماع المتْلُوِّ بالاستيعاب والتدبر، ثم المتلو بالعصيان، ثم يقولون إن ذلك ليس معصية وإنما هو إيمان بشيء آخر، ومن خلال الإيمان بشيء آخر يحرفون الكلم عن مواضعه على طريقتهم دائمًا، فيسمون الكفر الذي هو عبادة عجل، يسمونه إيمانًا، ذلك الإيمان قد تغلغل في قلوبهم، فأشربت ذلك الإيمان، والقرآن يسخر منهم ردًّا على هذه الدعوى بأن ذلك إذا كان إيمانًا، فبئس ما يأمر به الإيمان.. والواقع أنه يعود بالقضية على كل درجاتها، إن إيمانكم كفر، وما يأمر به كفر، وأنتم بسماعكم وعصيانكم تدخلون في هذه الدائرة.. وهذه مرحلة من المراحل التاريخية التي تمثل جذور المعصية عندهم.

ولم يقل القرآن هنا: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، وإنما قال: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ وهذا على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالإيجاز بالحذف، حيث حذف هنا المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، إذ أصله «حب العجل»، والسخرية تكمن في هذا، فالإنسان يُشرب في قلبه عاطفة معينة، فإذا كانت هذه العاطفة هي عاطفة الحب دخلت في القلوب، والقرآن عندما يريد أن يسخر من هؤلاء يجسد المضاف إليه، فيجعله يحل محل المضاف.. هو يشرب عجلاً.. ولا يقول إنه قد أشرب في قلبه الحب، بل أشرب في قلبه العجل، فقد بقي المضاف إليه، وقفز ليحل محل المضاف لتبيين بشاعة الصورة، وبشاعة ما يعتقدون من خلال هذا النوع من التهكم القرآني..

وهناك موضع آخر، أشارت إليه الآيات أيضًا وتحدثت فيه عن اليهود، وهو قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾[النساء: 46] فالتعبير القرآني بجماله وروعته يجعل

التاريخ اليهودي القديم يتصل بتاريخهم الحديث، ومن هذا فإن المفتاح الأساسي واحد، وهو ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وهو الذي يتكرر هنا، وهناك، لكن كما كانت هنالك مع المفتاح الأساسي الصورة المتهكمة، وهي الصورة التي تجعل الكفر إيمانًا، والإيمان كفرًا، والتصوير البلاغي لها بجعل الحب عجلاً، والعجل حبًّا.. هذا النوع من المزج بين الأمور.. هذه المرة يأتي مع المفتاح الأساسي ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ صورة جميلة أيضًا لخبث هؤلاء في التعبير.. أثناء خطابهم للرسول عليه السلام: يقولون: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ العبارة في ظاهرها تكاد تكون مؤدبة.. فأنت عندما تقول لإنسان: اسمع، فمن تقاليد اللغة العربية الجميلة أن تحترس، وتقول له: وأنت غير مجبر على السماع، لا أمرك أحد بالسماع.. يعني حاشاك أن تكون مأمورًا، لأن صيغة فعل الأمر صيغة جافة، لا ينبغي أن يقول الإنسان لآخر: قم، ادخل، حتى في حياتنا العادية نقول: من فضلك، أو ليس عليك أمر.. هكذا نخفف من صيغة الأمر، فظاهر المسألة اسمع غير مسمع، وراعنا.. هذه هي الصيغة الأساسية التي توحي بالأدب.. الواقع أن الصيغة المقصودة من باب الخبث صيغة مضادة.. اسمع غير مسمع، أي اسمع لا سمعت، لأنهم كما قال القرآن: يقولون هذا ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ..﴾ فهم يستعملون الصيغة المعينة التي يعطي ظاهرها الأدب لكن باطنها يعطي السخرية.. فاسمع أصابك الصمم، غير مسمع وهذا هو الوجه الآخر لها.. إما أنك غير مجبر على السماع أو أنت أعلى من أن تؤمر، أو لأنك لا تسمع أساسًا.

﴿وَرَاعِنَا﴾.. وهذه صيغة أيضًا يمكن أن تقترب من الرعونة في جذرها الأساسي، ويمكن أن تقترب من المراعاة، فهم عندما يوجهون الحديث من باب لَيِّ الحديث بالألسنة يضيفون إلى عصيانهم وسماعهم ومحافظتهم على المفتاح الأساسي لهم.. ليِّ القول وتحويل الصيغة التي تحمل في ظاهرها أدبًا ولياقة إلى نوع من الغمز واللمز، وهكذا كانوا في كل تاريخهم بارزين في تحريف الكلام عن مواضعه، وليِّ الألسن به....

وهناك فريق ثالث نجده في قول الحق تبارك وتعالى عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: 24] هذا عن قوم نوح، وأيضًا ورد مثل هذا

الذكر عن أقوام سابقين على أمة الإسلام: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ...﴾[ص: 2، 3] قالوا بعد ذلك: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾[ص: 7] وهذا إنكار للسماع بالمرة، وهؤلاء بالتأكيد حالهم- من حيث البنية اللغوية لما قالوه، ومن حيث دلالة العناد- أفضل بكثير من الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.. هؤلاء قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا﴾.. أي في هذه الحالة لا تتصل بمضمون السماع في ذاته، لكن تتصل بفكرة كسر العادة كأن جزءًا من أسباب الإنكار أنه ليس موافقًا لما جرت العادة عليه، فهم ينكرون الرسالات وينكرون أن يكون هناك بشر من بينهم يحملون رسالة؛ لأن هذا لم تجر العادة به، ولم يسمعوا بهذا في آبائهم الأولين، وهذه المسألة تأتي في إطار تفسير جزء من سر مقاومة الدعوة الإسلامية في بداية الأمر، فكل دعوة تقاوم بأنها لم تجر بها العادة، فهؤلاء يبررون الإنكار بأنه خارج على المألوف، وبأنهم كان من الممكن أن يقترحوا هم صورًا أخرى: (لو شاء الله لأنزل ملائكة)، لأن العادة في الملة الآخرة، أو العادة في آبائهم الأولين على حسب علمهم هم أيضًا، تعني أن الإنكار نفسه مردود عليه بأن عدم معرفتهم هو الذي قادهم إلى هذا، وليس عدم جريان العادة، فكل هذا جرى من قبل أن تكون هناك أمم سابقة عليهم وأن يكون لهم رسل من بينهم، وأن يحملوا إليهم كتبًا.. لكنهم لم يسمعوا بهذا، فمدى العلم عندهم توقف عند هذه النقطة.. لكنهم على أية حال أقل سوءًا من الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾..

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ..﴾ [المؤمنون: 24] قضية البشرية والآدمية هنا، وقد أثيرت في بعض الأحيان، هنا أشارت إلى أنه بشر.. والبشر يقصدون به إنسانًا عاقلاً، ولا يقصدون به ما دون ذلك، كما أشار البعض إلى أن البشر هم ما دون آدم أو هم من كانوا قبل خلق آدم، وأن بداية الإنسان هو آدم عليه السلام..

وهذه قضية شديدة التشعب والخطورة.. الواقع أن التعبيرات القرآنية كلها تتحدث عن هذا الإنسان بكينونته، ولا تتحدث عن آدم نفسه، من حيث كونه خلق بطريقة معينة.. لكن البشر والإنسان هما واحد في السياقات القرآنية.

• حاسة السمع:

إضافة إلى ما تناولناه من قبل من ورود التعبير عن السمع بالفعل: سمع وسمعنا، وسمعنا وأطعنا، وسمعنا وعصينا، وهم لا يسمعون هناك المصدر، هنالك هذه الحاسة، حاسة السمع، تساق في القرآن في كثير من المعارض منها: معرض الامتنان.. امتنان الله على خلقه بخلق هذه الجارحة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[السجدة: 9]، وهذا يأخذنا دائمًا إلى فكرة الترتيب الذي تَمَّت الإشارة إليه؛ سواء في نسبة هذه الصفات إلى الحق، أم في نسبتها إلى المخلوق.. سبق السمع كجارحة مستمرة يتم الامتنان بها على البشر، السمع سابق دائمًا على البصر، وسابق على الفؤاد، وهناك ارتباط شديد بين هذه الأشياء الثلاثة، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ..﴾[الإسراء: 36] أو ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ..﴾[المؤمنون: 78] أو ﴿سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ..﴾[الأحقاف: 26] دائمًا نجد هذا النوع من الترتيب المحكم يتصدر فيه السمع ويتوسط فيه البصر، وإذا جاء الثالث فيكون الفؤاد.. وهذا يدل على ما يعرفه العلم حتى الآن من هذه الأطراف الثلاثة التي تكون للإنسان جهاز المعرفة والإدراك.. النافذتان الرئيسيتان والمعمل الذي يتلقى هذه المعلومات من الحواس ويفسرها ويشكل سلوك الإنسان بناء على هذا، والإنسان مسئول عن هذا السمع والبصر والفؤاد.. هذا نوع من الامتنان العام بخلق هذه الحاسة في القرآن الكريم.

هذا الامتنان يشكل في جزء من الأجزاء صورة مقابلة عندما يتم التذكير بكارثة فقدانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ..﴾[الأنعام: 46] وتأمل التعبيرات المتتالية.. الحرمان من السمع والبصر يكون بالأخذ، والحرمان من القلوب لا يكون بالأخذ.. لأنه لو تم أخذ القلوب لأخذت الحياة، وانتهت المسألة، وإنما يكون بالختم عليها، وهذا يذكرنا بما تمت الإشارة إليه من قبل، عندما طبع الله على قلوبهم فهم لا يسمعون، أي عندما يتم تفريغ هذه الحاسة من وظيفتها ومحتواها تفقد الحواس الأخرى دلالاتها، ومن أجل هذا فإن الأفئدة- مع أنها ترد ثالثة- فإنها حين يطبع عليها تفرغ الحواس الأخرى من محتواها.

أما في حالة وصف الحق -جل وعلا- بالسماع فقد ورد الفعل مسندًا إلى الله عز وجل: ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾[المجادلة: 1] ووردت أيضًا الصفة المشبهة. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾[البقرة: 127]، ولم ترد صيغة اسم الفاعل العادية.. لم ترد صيغة «سامع» من سمع، وإنما وردت

صيغة سميع، ومعلوم أن الفرق الأساسي في اللغة بين اسم الفاعل والصفة المشبهة أن اسم الفاعل دائمًا عرضة للزوال، فأنت تقول «فلان جائع» فيأكل فيشبع، فالجوع حالة تأتي وتزول، ولهذا فإن اسم الفاعل مناسب لها، لكن مع صيغة الصفة المشبهة، كأن تقول: فلان كريم، لا يكون كريمًا في الصباح بخيلاً في المساء.. أو جميل.. فلا يكون جميلاً هنا وغير جميل هناك، فالصفة المشبهة تعطي معنى الثبات والدوام والاستقرار، ومن أجل هذا فإن الصيغة التي وردت في القرآن الكريم في نسبة السماع إلى الذات العلية جاءت بصيغة «سميع»، والفعل جاء «سمع»، وقد أسند هذا الفعل إلى الحق جل وعلا مرتين، مرة في سورة المجادلة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[المجادلة: 1] وختمت الآية بصفة ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ومرة أخرى في معرض الحديث عن اليهود: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[آل عمران: 181] عندما وجهت الدعوة إلى اليهود لأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، فتهكموا وقالوا إذا كان الله في حاجة إلى القرض فهو فقير، ونحن أغنياء، فجاءت صيغة: سمع الله.. هذا الكلام لعظم جرمه وخطورته، والذات العلية جلت قدرتها قرنت التعبير عند الرد على هذا الكلام بسمع الله.. وهذا الكلام فنده وكذبه القرآن الكريم.

وقد جاءت الصيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ في هذا الموضع، وجاءت لتؤكد الصيغة الأولى صيغة الماضي (قد سمع الله) بصيغة المضارعة: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ ولعل في التأكيد هنا شيئًا طريفًا: وأذكر أن المرحوم الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، كان قد أشار إلى هذه الآية الكريمة.. وأشار من خلالها إلى تفنيد بعض آراء الجامدين، وقال إن الذين يقولون إن صوت المرأة عورة.. كيف ينسون أن الله قد سمع هذا الصوت، وسمع الحوار وأقره في آية قرآنية كريمة.. ولعل المنهي عنه هو الخضوع بالقول، وليس مجرد القول مطلقًا، بل إن صوت الرجل في هذه الحالة- إذا أسيء استغلاله- فهو يؤدي أيضًا إلى المحظور ذاته.. يعني أن الحواس التي أعطيت للإنسان إذا استغلت استغلالاً حسنًا فهي حسنة، وإذا استغلت استغلالاً سيئًا فهي سيئة.. لكن المبالغة والتعميم، والخروج بالشيء عن إطاره هو الذي يفسد أحيانًا هذا القصد والاعتدال الذي يتميز به الإسلام..

ونعود مرة أخرى إلى كلمة ﴿سَمَّٰعُونَ﴾[المائدة: 42] وقد أشرنا إليها فيما سبق إلى أنها لم تستخدم إلا في موضوع الذم، وقد يتساءل متسائل: لماذا لم يوصف بها الله -سبحانه وتعالى- رغم أنها تدل على شدة السمع؟.

والواقع أن التعبير القرآني - كما قلنا من قبل - له معجمه الخاص.. القرآن عندما يستخدم كلمة، فإنها تكتسب معناها من طريقة تكرارها، فكلمة «الضلال» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ..﴾[يوسف: 8] وفي السياق القرآني تعني شدة الهوى، ولا يتولد هذا المعنى إلا من خلال متابعة الكلمة في سياقات متعددة في مواضع في سورة يوسف مثلاً، فنسبة الضلال من الأبناء إلى أبيهم، أي شدة الحب، ونسبة الضلال من نسوة المدينة إلى امرأة العزيز: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: 30] والضلال هنا ليس معناه ضد الهداية، وإنما من خلال السياق القرآني هنا شدة الهوى والعاطفة، والخروج بها عن حد الاعتدال، وبالطريقة نفسها أيضًا كلمة «السَّماع» عندما جاءت متصلة بالكذب، ومتصلة بتحريف القول، فإنها اكتسبت في السياق القرآني هذا المعنى الذي لا يليق أن يُنسب إلى مقامات أخرى، وظلت صيغة الصفة المشبهة «سميع» بإيقاعها وجرسها وباعتدالها وتكرارها تعطي هذه الدلالة التي لا نهاية لجمالها واتساعها على نسبة صفة السمع بمعناها الإلهي، الذي لا يلتقي مع المعنى الإنساني إلا في مجرد الحروف، لكن يدخل بعد ذلك دوائره الخاصة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ..﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ..﴾ في الأولى جدَال، وفي الثانية حوار، وهذا الفارق الدقيق، وهو الفارق بين الطرفين، فالقادمة شاكية منفعلة متأثرة، والذي يرد هو الرسول، ﷺ.. هادئ.. محاور.. موجه ليس هنالك تجادل، وليس هنا سماع لتجادلكما، لأن الرسول ليس طرفًا في المجادلة، لكن الرسول مهمته توجيه العقل والقلب والوجدَان بأسلوب الحوار الهادئ، فالانتقال من المجادلة إلى الحوار هو الذي يعطي هذا المعنى الجميل الذي أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة.

- **مزاوجة النص القرآني بين السمع والصفات الأخرى:**

وصفة السمع إذا كانت منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى، بصيغة (سميع) نجد أنها اقترنت بصفات أخرى، فعادة لا ترد بمفردها، وإنما ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 181] وهكذا تقترن بصفة أخرى..

وهذه صفة عامة، وواحدة من الظواهر القرآنية؛ فالظواهر القرآنية تعتمد كثيرًا على فكرة القرآن، على نوع من المزاوجة في وجود ألفاظ بعينها، وتأتي دائمًا ألفاظ فإذا بألفاظ تساندها، كأن لفظًا يذكر بالآخر، فالصلاة تأتي غالبًا معها الزكاة، والإنس غالبًا ما تأتي معها الجن، ودائمًا الصفات نفسها تأتي في شكل ازدواج، فالسميع تقترن غالبًا بإحدى صفتين بالبصير أو بالعليم.. ولعل هذا أيضًا يردنا إلى المنبع الأساسي، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ..﴾ فهذه هي الثلاثية التي تشكل نافذتين للحواس الإنسانية تقودان إلى مركز الاستيعاب والتمثل وإصدار القرار، وهذا المركز يسمى أحيانًا القلب وأحيانًا الفؤاد، وهو في نهاية الأمر يراد به القوى المدركة التي يتشكل من خلالها العلم، ويصل من خلالها القرار، وتتحدد على أساسها المسئولية، هذا النوع إذا كان قد وُجد أثناء نسبة الحواس للإنسان، هذا الإنسان الخليفة الكائن، والذي يشرف أيضًا بأنه يحمل أسماء الصفات نفسها مع تباعد كبير جدًا لا نهاية له في مدلولاتها، يُقدم له أيضًا صورة بكيف تجتمع هذه الصفات التي من شأنها أن تتكامل عنده هو، يتكامل عنده السمع مع البصر مع الفؤاد.. السمع مع البصر مع العلم.. هذا النوع من التكون الثلاثي يُجسَّد له بصورة عظمى في الصفات الإلهية.. فالصفات الإلهية عندما تُلقى إليه تُلقى سمعًا وبصرًا، أو سمعًا وعلمًا.. فسميع بصير أو سميع عليم، أو السميع البصير، أو السميع العليم.. حسب السياق وحسب الموقف الذي تساق فيه الآيات.. لكن الملاحظ دائمًا أنه أيًّا كانت الصفة التي تقترن بالسمع، فصفة السمع في الأغلب.. هي الأسبق أولاً، وهي الأكثر ترددًا.. سواء جاءت مع البصر أم جاءت مع العلم، فهي الأكثر ترددًا في القرآن.. أحيانًا تأتي مع صفة أخرى.. ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبأ: 50] لكن الأكثر شيوعًا هو ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أو ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ..﴾ سواء بالتعريف أو التنكير.

وهناك دلالات مفردة، ولكنها خاصة بالسياق.. بمعنى أن عليك لكي تقف أمام دلالة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: 11] أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء: 58] وهذه تفريعة أخرى.. فالأولى تأتي في سياق تعطي معنى أصول الصفة.

ولكن إذا جاءت (كَانَ) فينبغي أن نتذكر دائمًا أن (كَانَ) عندما ترد في الصفات الإلهية، أو في القرآن، ليس معناها أبدًا «كان الماضية» كما يقول النحويون: إن كانَ فعلٌ ماض ناقص.. هذه قضيتهم، لكن هذا لا علاقة له بالدلالة الأساسية.. يعني هذه «كان» التي تفيد ديمومة. فـ«كان»، عندما تقال (وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) لا علاقة لها بالماضوية ولا بالمستقبلية ولا بالنقص ولا غيره.. فأحيانًا تأتي في القرآن بهذه الطريقة بـ(كَانَ) وأحيانًا مسبوقة بـ(هُوَ) ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ..﴾[الأنعام: 13] وأحيانًا تأتي نكرة وأحيانًا تأتي معرفة.. لكن لكل واحدة من هذه الصيغ دلالاتها الخاصة بها في سياقاتها القرآنية.

ونود أن نتوقف مع آية لنتعرف من خلال السياق أيضًا على الفاصلة القرآنية التي استخدم فيها لفظ السميع، ونتعرف على مدلولها، وليكن ذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: 127] فربما يكون جزء من استشفاف جوانب المعنى التي يقترن فيها السماع بالعلم يكمن في جوانب الضعف الإنساني، يعني أن المتحدث هو الإنسان الضعيف، والذي يدعو يرفع شكايته، ويظهر ضعفه، وهو يرفع شيئًا مجسدًا في صيغة دعاء.. لكن هذه الصيغة نفسها قابلة عند الإنسان العادي، لأن يكون فحواها حقيقيًا أو يكون غير حقيقي، لأن تكون تعبيرًا عن واقع أو دعاء، لكن الذي رُفعت إليه الشكاية يعلم الحقيقة، وليس فقط سميعًا لما قيل، ولكنه أيضًا عليم بالنوايا، عليم بالفحوى.. ففي مراحل الضعف من الأدنى إلى الأعلى ربما تكون العليم مقترنة بالسميع هي الأنسب في هذا المقام، وهي الأكثر شيوعًا، وإن كان هذا في ذاته يحتاج إلى استقصاء آخر لعدد مرات ورود السماع مع العلم، في التنكير والتعريف.. لكن ربما يكون في الوجه المقابل ورود البصر مع السمع.. هذه المرة ليس الأمر شكوى من الضعيف إلى القوي، وإنما امتنان من القوي على الضعيف.. وهذا يحتاج إلى وقفة أخرى.....

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 61].

فقد جاءت الفاصلة هنا بالسمع والبصر، وإذا كنا في الحوار السابق قد أشرنا إلى أنه غالبًا عندما تأتي ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تنطلق من الضعيف إلى القوي، من الذي يرجو إلى الذي يملك، أما ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ فهو التعبير عن المهيمن، هو انطلاق من الأعلى إلى الأدنى.. عندما يكون الأمر مختصًا بقوة الهيمنة، وقوة الإحاطة فإن هذه المسألة يتفق معها أن تجتمع القوى الكبرى.. السمع والبصر.. كما رأينا في هذه الآية.. ذلك بأن الله يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل.. من يستطيع أن يصنع هذا؟ فهذه مسائل هيمنة كبرى، لا يستطيع أن يدرك دقائقها، ولا أن يعرف أسرارها، ولا أن يتلافى المخاطر الكبرى التي تنجم عنها إلا من يملك الهيمنة الكبرى للسمع والبصر.

ومن شأن هذا المهيمن الذي يعرف ملايين الملايين من الأصوات متى تخفت ومتى تقوم، وملايين الملايين من الأضواء متى يكون دخولها على بعض دمارًا، ومتى يكون دخولها على بعض خيرًا، وهكذا، وملايين الملايين من الأحياء التي يكون إيلاج الليل في النهار حياة لها، أو إيلاج النهار في الليل راحة لها.. هذه مسألة لا يستطيع أن يدركها إلا من يعرف أسرار كل الكائنات.

وهناك ملاحظة للجاحظ في كتاب الحيوان وهو يتحدث عن فكرة «إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل» وارتباط ذلك برزق المخلوقات.. كان يتحدث حديثًا عن درجات قوة الإبصار عند الكائنات المختلفة فوقف عند الخفافيش، وتحدث عن قوة إبصارها، وعن اتساع الحدقة، وهو اتساع لا يسمح لها في الواقع بالرؤية في النهار الواضح ولا في الليل البهيم، وهو اتساع يكفي بالكاد لكي ترى في فترة اختلاط الليل بالنهار في فترة إيلاج هذا بذاك.. هذه الفترة حددها العلماء بما بين غروب الشمس وزوال الشفق.. ليس هناك نهار واضح، ولا ليل واضح، فترى الخفافيش تنطلق.. هذه واحدة.. لكي تنطلق من محبسها لتبحث عن رزقها، قال: في هذا الوقت تخرج جماعة أخرى من الكائنات ممثلة في البعوض وما شاكله.. هذه تخرج في هذا الوقت لأنه وقت عودة الدواب من حقولها، وإنهاء عملها طوال اليوم، وخلودها للراحة، وهذه الحشرات تريد أن تتغذى على دماء الدواب

فتفضل هذا الوقت لكي تخرج فيه باحثة عن رزقها.. هذه الحيوانات الصغيرة هي في ذاتها طعام وأفضل رزق للخفافيش، فتخرج الخفافيش في هذه اللحظة لكي تقع على حيوانات أخرى صغيرة.. تخرج باحثة عن رزقها.. يقول الجاحظ: «فيقع طالب الرزق على طالب الرزق» فسبحان الذي يعرف كيف يولج الليل في النهار، وكيف يخرج هذا الكائن لكي يتغذى على ذلك الكائن، ولكي يحيا، ولا يصنع هذا إلا السميع البصير.. من أجل هذا كانت دقة لازمة السمع والبصر أن تأتي مع قضية مثل إيلاج الليل والنهار.

ونلاحظ أن بعد هذه الآية عددًا من الآيات التي ازدُوجت فيها صفتان لله تعالى في كل فاصلة، ففي الآية التي تليها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62]، ولم تأت السميع البصير، وذلك لأنك عندما تتحدث عن شيء معنوي كالحق والباطل، وعن شيء لابد أن يغلب فيه أحد الطرفين الآخر.. لابد أن يكون الحق غالبًا والباطل مغلوبًا.. لابد أن يكون الحق كبيرًا، والباطل صغيرًا، فإذا جاء الصراع.. هذا هو الحق وما يدعون من دونه هو الباطل لا تكون الصفة أنه سميع بصير، وإنما عليٌّ كبير.. لكي يسود ذلك الحق دون نزاع، ولكي يكبر على ذلك الباطل.

ثم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63]، حيث لم ترد الفاصلة «السميع البصير»، فما يترتب على هذه المسألة من أنه لو لم تصبح الأرض مخضرة لأصابها الفناء.. ولطف الله بها هو الذي يجعل الماء ينزل إليها، وعلم الله بأن حياة هذه الأرض تتطلب ذلك الماء، كل ذلك يتطلب أن يتم الامتنان على العباد، فكل شيء بلطف وخبرة ومقدار، فالله يحدد الأمور، فهذه الفاصلة القرآنية تجيء دائمًا في سياقها وفي موقعها، ولا يصح في الأذهان أن تحل محلها فاصلة أخرى؛ ولذلك كان بعض البدو من الذين لم يدخلوا الإسلام إذا تليت عليهم آيات لم يعرفوا أنها قرآن، وأخطأ أحد الناس في فاصلة قرآنية، يقول له: هذا الكلام لا يستقيم.. هذه لا يمكن أن تكون نهايتها «السميع البصير» وإنما تكون نهايتها شيئًا يتسق مع المعنى السابق؛ ولذلك فالفواصل القرآنية تسير عادة على هذا النمط الجميل الدقيق.

تشكيل الصورة في النص القرآني

القرآن الكريم كتاب الله المعجز بكل جزئياته، سواء مفرداته أو تراكيبه، وعندما ننظر إلى التصوير والتشبيه والتمثيل في لغة القرآن نرى فيه نسقًا خاصًا متميزًا.

عندما نتأمل الصورة التي أشار بها القرآن إلى قضية الحياة والنماء والزرع، نجد أنفسنا مأخوذين إلى التأمل في هذه الصورة التي صور بها القرآن هذه الأساسية من أساسيات الحياة.

الذكر الحكيم في تعرضه لقضايا ربط الأشياء المجردة بأشياء محسوسة قدَّم أشياء رائعة من الإعجاز الفني خلال آياته، فضلاً عن الإعجاز في النواحي الأخرى المعروفة للكتاب الكريم.

تتردد فكرة الزرع في القرآن كثيرًا، ولابد أن نقول أيضًا: إنها فكرة تتردد في حياة صحراوية، حياة قاحلة، لكن لو تتبعنا الماء والزرع والخضرة والنمو وما يتصل بها نجدها تحول هذه الحياة في ذاتها إلى واحة، وتحول القراءة في القرآن الكريم إلى بستان وحديقة تجعل مظاهر الحياة تحيط بالنص، وتلفت الإنسان إلى أساسيات الحياة نفسها باعتبار أن فكرة الزرع تمثل الدورة المصغرة للخلق والعدم، للميلاد والنمو والفناء، وهي الدورة التي تطرح أمام عين الإنسان التمثيلية الدائمة، والتي تطرح أمامه الفكرة الأساسية لمعنى الإخلاص في العمل؛ لأنك لا يمكن أن تغشّ نفسك، إذا لم يُرْعَ الزرع فلن ينبت أو ينمو، وإذا لم تحفظه من الأمراض الطفيلية فإنه سيتعرض لما يهلكه ويذهب به.

كثير جدًّا من القضايا المجردة في الإيمان والعقيدة والعمل وحسن السلوك ارتبطت بفكرة الزرع والنمو، وكثير جدًّا من تفصيلات فكرة الجزاء والحصاد ورؤية نتائج الأعمال ارتبطت أيضًا بفكرة الأشجار والثمار وما تنتجه هذه الكائنات بإذن الله من ناحية، وبالرعاية والإخلاص من ناحية ثانية. عندما نأتي إلى فكرة كفكرة الإنفاق في سبيل الله، فكرة كانت دائمًا من الأشياء التي تم التحريض عليها ورسم الطرق الملائمة لها في آيات القرآن باعتبارها نموذجًا أساسيًّا لتطهير الفرد من مرض الأنانية الذي يعود به إلى بدايات الوجود البشري، يرتد به إلى الحيوانية،

وباعتبارها تمهيدًا لخلق معنى الجماعة؛ لأن الإسلام حرص على أن يشكل منذ البدء جماعة تتلاحم تلاحمًا قويًّا، فكانت فكرة الاستهانة بالعَرَض الزائل، وعد التكالب على المال الخاص في سبيل الصالح العام- شيئًا أساسيًّا.

- **صورة من ينفق ماله في سبيل الله في سورة البقرة:**

آيات كثيرة جدًّا تحدثت عن الإنفاق في سبيل الله، منها الآيات المشهورة في سورة البقرة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261] عندما نتأمل هذه الآيات من الناحية الفنية، من ناحية بنية الصورة، كيف يمكن أن تقود هذه البنية إلى أداء ذلك الهدف السامي، نجدها تتحدث عن طرفين للصورة، عندنا مشبه ومشبه به، المشبه جمع ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والمشبه به مفرد ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾، وهذه هي المفارقة الأولى، فأنت تظن أنك تبحث عن تكبير شيء، فإذا بك للوهلة الأولى تصغره، أنت عادة عندما تريد أن تصور ضخامة إنسان تقول: إنه كالنخلة، كالجبل، المشبه به دائمًا يكون أكبر في الدلالة من المشبه، هنا تبدأ الصورة عكسية، حيث نجد ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾، هذه المسألة تلفت النظر إلى شيء آخر أن المشبه به ليس زارع حبة، بل الحبة ذاتها، وتلك لفتة أخرى؛ لأننا إذا التفتنا إلى الطرف الذي يراد تصويره، سنجد أن هناك فرقًا بين أن يكون المشبه به هو زارع الحبة وبين أن يكون الحبة نفسها؛ بمعنى أننا إذا تأملنا ما يمكن أن يسمى بديناميكية النمو، سنجد أن حركة النمو كائنة في الحبة، وهذا معناه أن صنع الخير عندما يتم يبدأ في التضاعف- كما سنرى- على نظام الآية دون واسطة، فالعمل الخيِّر عندما يتم لا يكون كمثل زارع حبة، ولكنه كالحبة ذاتها، كأنه حمل بذرة الحياة، وهذا هو الذي يجعل الشيء الذي بدا وكأنه صغير- بالقياس إلى المشبه- يبدأ فيعطي التضاعف ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾، وعندما نحسب النتيجة الأولى (1 ×7 ×100)، سنجد أن الواحد يساوي سبعمائة، لكنه أيضًا- وهذا جزء من أسرار التعبير- هناك فرق بين حبة تنبت ثمرة تحتاج إلى أن نستخرج منها حبة أخرى تكون بذرة، وحبة تنبت حبة، بمعنى أنها صالحة في الوقت ذاته

للتضاعف المباشر، ثم تأتي هذه الخاتمة الرائعة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]، بمعنى أننا مع الحسابات الأولى التي تجعل الأشياء مضاعفة، ولا تنس أن رقم سبعة في العربية ليس معناه سبعة، ليس هو التالي لستة والسابق لثمانية، الرقم سبعة معناه الكثير، ونحن حتى الآن نقول: سبع مرات، وسبع حكايات للدلالة على الكثرة، فتأتي ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ لكي تفتح الباب دون نهاية لتحويل هذه الصورة التي بدأت بمشبه كبير ومشبه به صغير، فيتحول إلى شيء لا نهاية له، وذلك من صُلب الإعجاز التصويري في القرآن الكريم.

قال الله- عز وجل-: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 262، 263].

من روعة التصوير في الذكر الحكيم أنه يقدم موجة أولى للذهن الذي يتلقى، وقد تكون هذه الموجة موجة تصويرية مكثفة كما حدث في مسألة الحَبة والسنابل المضاعفة، ثم بعد أن تكتمل الصورة الأولى في الذهن، يتلقاها ويطمئن إليها في مجملها، لابد أن يعقبها بما نسميه الآن بالمحترزات، وبالمكملات، ليس كل الذين ينفقون يتساوون في الحصول على هذه الجائزة الكبرى، لابد- وقد اطمأننت إلى الصورة الأولى- أن تعرف أن هنالك درجات يمكن أن تشوب ذلك الإنفاق، وهذه مسألة لابد أن تُقدم واضحة، ومن أجل هذا نجد- ونحن نقدم هذه الآيات الواردة في سورة البقرة- أن الذكر الحكيم بعد أن يقدم هذه الصورة الأولى المحسوسة التي تكاد تراها العين يعود إلى الاستنتاج وإلى تقديم المبدأ الذي يفرق بين المنفق في إخلاص والمنفق رياءً؛ لكي يكرَّ مرة أخرى على صورة محسوسة مكثفة سوف نراها في الآية التالية.

الآية التي أعقبت الآية التي تحدثت عن الحَبِّ والسنابل هي الآية التي تشير إلى أن هذا النوع من المضاعفة إنما هو خاص بالذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذىً، هذه طائفة ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وإذا ربطنا هذا بالظاهرة الأولى التي تحدثنا عنها في مسألة الزرع، نجد أن الذي ينفق ويُتبع الإنفاق بالمن والأذى لم يستطع الإفلات من

فكرة الأنانية التي أريد من خلال التشجيع على الإنفاق أن تجر الجماعة البشرية والفرد المتحضر من العكوف على صالحه الخاص والفرح بما أوتي، وتفتح الأفق أمامه للإدراك بأن جماعة متماسكة فيها الخير يعود على أفرادها خير من أفرادٍ يعكفون على ما يظنونه خيرًا، فيعود بالسوء على غيرهم.

لقد أظهر البيان القرآني الفرق بين هذين الصنفين، فأجرى تفريعًا، ليس المقصود بالإنفاق الذي يتم عليه مضاعفة الأجر هو ما يهبه الأغنياء من فضل مالهم فقط، لكن الرقي في القول والسلوك هو الأهم، فقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: 263]، مسألة تَبْهَر العقول، الذي لا يملك المال، ولكنه يملك القول، ليس المال في ذاته هو الذي يستلزم المضاعفة، ولكن مقاومة شح النفس التي تملك المال، والرقيّ من خلال المال إلى فكرة ذوبان الفرد في الجماعة، وضح إذن أن إنفاق المال وسيلة وليس غاية في حد ذاته، ولذلك فالذي لا يملك هذه الوسيلة (المال) يستطيع أن يصل إلى الغاية بالكلمة، أن يكون عنده ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، وهذه المرة يُقدَّم القول ويُنَص على أنه خير، ليس فقط من الإنفاق، بل من ﴿صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾. عليك أن تلاحظ الفرق بين التعبيرين، فقد ذكرت كلمة (الصدقة) بمعناها الحسن، وهي إنفاق صَدَرَ عن حسن نية وأريد به نفع جماعة، هذا إذا تبعه أذىً، فإن مجرد القول المعروف خير منه.

هذا النوع- إذن- من التوازن الأوليّ بين فكرة الصورة التي قُدِّمتْ مكثفة، وما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من سوء فهم لمعنى المضاعفة التي ستمهد الطريق لصورة شديدة التكثيف عن المقابلة بين الإنفاق المقصود به المراءاة والإنفاق المقصود به وجه الله. الآية الأولى دعوة عامة للناس إلى الإنفاق، ثم أتت الآية الثانية لكي تحدد الأطر الخاصة التي يكون من خلالها هذا الإنفاق، وعلى المستوى الفني تأتي لتفصل بين صورتين حسيتين مكثفتين، الأولى هي صورة السنابل والحب والمضاعفة، صورة أخرى جاءت بعد هذا التجريد تقودنا إلى رسم وجهين متقابلين للإنفاق الخالص والإنفاق المرائي.

- **الامتنان والصخرة والتراب تحت المطر:**

يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 264].

تأتي موجة أخرى بعد فاصلة وضعتْ حدود الذين ينفقون، وهذه الموجة تقدمها هذه الآية عندما ترسم صورة الموازنة بين الذين ينفقون بإخلاص والذين ينفقون على سبيل المراءاة، وكعادة الآيات القرآنية في التصوير بنيت الآية بناء دقيقًا جدًّا متداخلاً، يحسن أن نتأمل بعض أسراره وجوانبه.

تبدأ الآية بتوجيه الخطاب للمؤمنين، هذه المرة للمؤمنين دون شائبة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، ثم تأتي بخطوة تالية تقدم فيها شبيهًا لمن يفعل ذلك، هو ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، ثم تستمر لكي تجسد الصورة فتقول: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 264].

إذا تأملنا عصب البناء في هذه الصورة من خلال فكرة الضمائر، من خلال فكرة الإفراد والجمع، ومن خلال فكرة أركان الأشياء التي يُشبَّه بعضها ببعض- نجد أشياء لافتة للنظر جدًّا، فالآية بدأت بالإيمان وانتهت بالكفر؛ فأولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وآخرها: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، هذه صورة وهذه صورة مقابلة تمامًا، ولكي تتحرك في الربط بين الذين آمنوا ووُصفوا بالإيمان ومزالق تحركهم إلى الدائرة الأخرى البعيدة، جعلت التحرك على النحو التالي: على مستوى حركة الضمائر الأساسية لم تشبِّه الذين آمنوا بالذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، وإنما شبهتهم بالذي، بالمفرد، هذا انتقال أول، ولنلاحظ قبله أنه لم يحدث أبدًا التشبيه المباشر بين بداية الصورة ونهايتها، بمعنى أنه ليس الذين آمنوا- وإن راءوا- كالكافرين، بمعنى آخر هو أنه إذا كان (ا) يمكن أن يكون مثل (ب)، و(ب)

يمكن أن يكون مثل (ج)، فليس من الضرورة أن يكون (ا) مثل (ج)، أي أن المؤمن الذي ينفق ويبطل صدقته بالمن والأذى كالمرائي الذي يرائي الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا المرائي هو الذي ينطبق عليه وصف الكافر، فالتشبيه هنا بُني على ثلاثة أضلاع، ليس من ضلعين فقط، بحيث لا يرتطم أبدًا مباشرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فجعل بينهما مجموعة جسور، إنذارات على مستوى الإفراد والجمع؛ لكي يعيد الضمائر في كل مرة على مفرد، مع أن البداية تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، ثم يأتي ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، ولو جاء الفصل جمعًا لقيل: ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولأحدث اللبس احتمال أن يعود الضمير على الجماعة الأولى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولكن الفصل جاء من خلال فكرة الضمير المفرد بدلاً من الجمع، مع أن الآية انتهت بالعودة إلى الجمع ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لكي يكون هناك فاصل بين نمط الضمير الجمع الأول ونمط الضمير الجمع الثاني، بين (ا) و (ج) من خلال (ب) الفاصلة التي بينهما وتعود مفردة؛ لكي تبعد بكل الحالات شبهة أن يكون المؤمن كافرًا، وتعطيه فقط إشارات تحذير، وليس حكمًا بالتكفير، ثم تعود الآية نفسها إلى ضمير الجمع ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ تمهيدًا لهؤلاء الذين لا يؤمنون بوصف لهم في نهاية الأمر أنهم كافرون.

- **بناء الصورة بين ثلاثية الأضلاع وثنائيتها:**

على هذا النحو تبدو بنية الضمائر من ناحية، ومن ناحية أخرى تبدو بنية الأضلاع المثلثة للتشبيه، وليس الاصطدام المباشر، عاملاً مهمًّا في رسم الصورة الأولى، وهذا يعطينا فكرة عن سرعة ألسنتنا أحيانًا عندما تسارع فنصف إنسانًا بأن إيمانه كذا، أو نحكم عليه بكذا، حتى في حالة النقص الشديد في التكوين نرى كيف تدرجت الآية للتحذير وليس للتكفير، للإنذار وليس للمواجهة، ولكي تفرض هذا النوع من التسامح العظيم وتعطي فرصة، أن الذي ارتكب مخالفة مرة يتسامح معه مراعاة له أن يعود، والذي صنع شيئًا مخالفًا أن يخجل من نفسه،

بدلاً من أن تحدُث المواجهة التي تقطع الأمل، وهذا نوع من الأدب القرآني، ليس فقط بالمستوى المباشر، ولكن كذلك في مستوى البنية التصويرية.

والحقيقة أن من إحكام الآيات القرآنية ومن دلائل الإعجاز فيها أن الصور تأتي متعاونة يشد بعضها بعضًا، فالصلة بين المشبه والمشبه به في حالة المؤمن الذي يتعرض للرياء ويخاطر بذلك بالاقتراب من منطقة الكفر تمر بثلاث مراحل، بينما نجد للوهلة الأولى عندما ترسم الصورة المقابلة للمنفق المخلص أنها ترسم على مرحلتين فقط ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ..﴾ [البقرة: 265] من الممكن جدًّا أن تكون الجنة مقابلة للمؤمن المنفق مباشرة دون أن يكون هناك فاصل كما كان الشأن في رسم الصورة الأولى عندما كانت حبة ارتبط بها مباشرة المؤمن، وعلى عكس ما فعل في الصورة الوسطى عندما كان الذي ينفق رئاء الناس وسطًا بين المؤمنين الذين وجه إليهم الخطاب والكافرين الذين انتهى بهم الفاصل الوسط في هذه الصورة.

لكننا نحاول الآن المقارنة بين صورتي الإنفاق رئاءً أو إخلاصًا من خلال النواحي الفنية البحتة، وسوف نجد أن صورة المنفق المرائي قد رسمت على النحو التالي ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ صخر قوي شديد، هذه هي المرحلة الأولى، «عليه تراب»، هذه هي المرحلة الثانية، ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر نزل فوقه، هذه هي المرحلة الثالثة، عندنا صورة مكونة من ثلاثة أشياء، عمقها صلد جاف لا يصلح للنمو، وهو بمثابة القلب الذي يملكه المرائي، بمثابة التربة غير الصالحة للإنماء، ومع ذلك فإن هذه التربة تغطى بقشرة خادعة، والقشرة عبارة عن تراب، والعلاقة بين التراب والصفوان هي علاقة المعاكسة دائمًا، الصفوان في أصله أبيض والتراب أسود، والصفوان يعطي الإيحاء بعدم النمو وعدم القابلية للزرع، والتراب يعطي الإحساس بإمكانية احتضان البذرة، ومع أن الباطن الداخلي للصفوان غير قابل للنمو فإنه قد غطي بالتراب، وشرط الإنماء في التراب أن يختلط بالماء، والماء يجيء من المطر، وعندما يكون التراب هشًّا والقاعدة التي يعتمد عليها صلدة غير قابلة للنمو- فإن زخات المطر الوابل تغسله فتكشف أصله؛ هذا هو الاختبار الأساسي الذي يتعرض له أيضًا المرائي، الذي لا يملك في الواقع قلبًا قابلاً لامتداد

الخير فيه، ولا نية قابلة لاحتضان بذرة، ومع ذلك فهو يغطي نفسه بعكس ما هو عليه، يغطيها بتراب، يغطيها بالرياء من خلال التظاهر بالرغبة في الإنفاق طلبًا لمودة الناس، فإذا تعرض لاختبار حقيقي فإن هذا كله يزول للوهلة الأولى كما تزول طبقة التراب الهشة أمام وابل المطر، ومن أجل هذا فإن الآية حينما جعلت هذا بين قوسين كأنها جعلته في بنية الصورة، جعلته أولاً أثناء الحديث عن الصورة شيئًا متعلقًا بالجماد، والأشياء الأولى متعلقة بالإنسان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ..﴾، والأشياء الأخيرة متعلقة بالكافرين، بأناس، فجاءت هذه الصورة كأنها بين قوسين، ثم عقبت على هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾، مع أن الحديث السابق مباشرة كان عن الصفوان والتراب، فجأة يتم الانتقال كي تثبت هذه الصورة في الذهن، ويتم الربط المحكم بين الأمرين من خلال هذه الأمثولة العارضة التي صيغت بطريقة فنية محكمة، لكننا سوف نتبين مزيدًا من الإحكام الفني حينما ننظر في الصورة المقابلة، وعلينا أن نتذكر هنا أن الصورة التي معنا الآن، صورة الصفوان والتراب والوابل، تكونت من نموذج ثلاثي رأسي، تكونت فيه الأمور كما وضحنا، وكان عمقه الشيء الصلد غير القابل للنمو، وطبقته الخارجية التراب، وهي طبقة هشة رقيقة، حتى إن أعطت لونًا مخالفًا، والاختبار الحقيقي هو الوابل؛ وسوف نرى كيف تتحول هذه الصورة إلى شيء آخر حينما تأتي إلى صورة الإنفاق المخلص، سوف نجد أيضًا أن الصورة معنا ترتسم من خلال تشكيل ثلاثي على نفس النمط السابق، لكن سوف تختلف جزئيات التشكيل الثلاثي من حيث الصلابة والرخاوة والقابلية للنمو وعدمها ومن حيث الطبقة الخادعة أو الطبقة الحقيقية، ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ وهذه هي مرحلة الوسط التي تقابل التراب، «الربوة»، وهذه المرحلة الأولى التي قابلت الصخرة هناك، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾.

ولابد أن نتأمل مدى صعوبة إخراج المعاني النفسية الدقيقة في صورة حسنة تكاد العين تراها؛ لأن الفارق الدقيق جدًّا بين الإنفاق المرائي والإنفاق المخلص لا يتبينه إلا صاحب العين البصيرة، فبعض الناس يبدون جزءًا كبيرًا جدًّا من الطيبة

وجزءًا كبيرًا جدًّا من إظهار النوايا الحسنة والعطف على الآخرين، لكن كيف يمكن التقاط الفارق الدقيق بين الإنفاق المخلص والمرائي؟ هذا يمكن الوقوف عنده في كثير من آيات القرآن الكريم التي صورت الأشياء التي تلتبس على الآخرين، ونحن عندما نقف على نحو خاص أمام طريقة رسم صورة المنافقين في القرآن في مراحل كثيرة وهم ينتمون إلى النمط الذي تنفر منه الآيات التي تتناول الإنفاق في سورة البقرة- نجد رصدًا دقيقًا للخلجات النفسية، وهذه واحدة من معجزات التصوير البياني في القرآن.

- **جزئيات الصورة الثلاث واختلاف نسق ترتيبها من حالة لأخرى:**

ونحن رأينا صورة الإنفاق المرائي الذي رسمته الآية (264) في صورة قاعدة ثلاثية متنامية، بدأت الآية فيها- إذا قسمنا الصورة إلى أسفل ووسط وأعلى- بالجزء الأسفل وهو الصفوان ثم نمت إلى الجزء الأوسط وهو التراب ثم جاء الجزء الأعلى وهو الوابل، هذا في صورة المنافق، لكن عندما نعود إلى الصورة المقابلة، صورة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم- سوف نجد الأركان الثلاثة موجودة، الأركان الثلاثة وجدت في شكل رأسي كما في السابق، ووجدت بتسمية متحدة في ركن منها وهو الركن الأعلى، وبتسمية مختلفة في الركن الأوسط والركن الأسفل، لكن تأمل طريقة البدء، لم يتم البدء في صورة المنفق ابتغاء مرضاة الله من الركن الأسفل ولكن بدأت من الركن الأوسط، قيل هنا ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾، إذا قلنا في صورة المنافق إننا بدأنا بـ(أ ثم ب ثم جـ)، فنحن هنا بدأنا بـ(ب) ثم نزلت ثم صعدت؛ لأن الجنة هي المقابل للتراب هناك، هذا هو الفرق الأساسي، فالتراب طبقة خادعة لأنها طبقة شكلية، بينما الجنة طبقة من التراب المتراكم مثمرة ومتماسكة، والربوة هي مقابل الصخرة؛ لأن الشيئين يجمعهما الارتفاع، وهذا الشكل العالي الذي جعل الأشياء ترى بوضوح، فالذي ينفق يعلو، لكن يعلو في عين من؟ هذا هو السؤال، الذي يريد أن يعلو مراءاةً يعلو على صخرة، والذي يريد أن يعلو تثبيتًا يعلو على ربوة؛ لأن الفرق بين الصخرة والربوة هو الفرق بين العقم ورفض احتضان البذور وبين الخصب وقابلية امتداد الجذور، الصورة أرادت أن تجعل (ا) متحدة في الأمرين، الوابل

هنا هو الوابل هناك، لكن جُعِل الفرق في نتائج الاختيار بين العمل الهش والعمل الراسخ، بين العمل المرائي والعمل المخلص، الماء هو الماء، والمطر هو المطر، لكنه إذا هبط على تراب هش غير مستند إلا إلى صخرة عقيم، فإنه لا يفعل إلا أن يزيح التراب ويغسل الصخرة، وينكشف اللون وينكشف العقم، لكنه عندما يهبط على جنة بربوة، لا تؤتي الثمرة فقط، بل تعطي أكلها ضعفين، وقد جاء الوابل هنا وهناك لكي يحدث الاشتراك، لكن حتى لو لم ينزل الوابل على الجنة فإن القليل من الندى، من الطل، سيؤتي الأكل ضعفين أيضًا ويستحق النماء؛ إذ ليس المهم في الإنفاق كمه ولكن الهدف منه والنية فيه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

• صورة «الماء» في سورة يونس – الإنسان جزء من الظاهرة الكونية:

عندما نتأمل دائمًا فكرة التصوير الفني المعجز في القرآن الكريم ندرك إلى أي حد تعمد الآيات إلى تحويل الإنسان إلى جزء من الظاهرة الكونية، إلى إرجاعه إلى خلطه بما يسميه أحيانًا بالكائنات غير العاقلة، ويظن أنه وحده العاقل، وهي لا تعي ولا تفهم، إلى إرجاع الإنسان إلى هذه الدورة الكونية التي تقوم أساسًا على الامتثال، والخضوع، وتعد من جند الله.. كيف يمكن أن يدخل الإنسان في هذه الدائرة لكي يتدبر أمر نفسه من خلال المقارنة والتمثيل والتجسيد.. وإذا كانت صورة البحر التي كنا قد تحاورنا حولها من قبل في القرآن الكريم تقوم على فكرة كيف يمكن أن يقوم هذا الشيء الذي يبدو في ذاته هشًّا لينًا رقراقًا وهو الماء.. كيف يمكن أن يكون هو أيضًا الشيء المدمر القوي العنيف.. وهو الشيء الذي يحمل أمل النجاة ومخاطر الغرق في وقت واحد..

هذه التصويرات الفنية التي وردت في سورة يونس وكانت مجالاً للحديث عن صورة البحر في القرآن أعقبتها صورة فنية رائعة تتحدث هذه المرة عن الماء، وهو الجزئية الأساسية التي يتكون منها البحر، وتحاول أن تربط الحياة كلها بالماء.. ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[يونس: 24]، والواقع أن بنية الآية تحتاج بالفعل إلى تفكير شديد في كل العناصر اللغوية التي تكونت منها هذه الآية المعجزة، وقادتنا إلى هذا النوع من التأثير النفسي والأدبي والفني الرائع العظيم إلى جانب تأثيرها الديني الأساسي.. الحياة والدنيا مثلها كماء، والإنسان عندما يتأمل كلمة ماء.. هذه الكلمة العجيبة جدًّا التي وضعت أولاً في كفة مقابل الحياة الدنيا.. ولو أنك وزنت الكفة الأولى الحياة والدنيا ستجدها أولا من الناحية اللغوية البحتة مكونة من كلمتين معرفتين.. الحياة الدنيا.. تستطيع أن تعد في كل كلمة منهما- بالإضافة إلى أداة التعريف الألف واللام- أربعة حروف هنا وأربعة حروف هناك، فتجد عندك ثقلاً كبيرًا جدًّا في الكفة الأولى، وهو الذي يغري ويوهم، وفي الكفة الثانية كلمة واحدة منكرة.. ليست حتى «كالماء»، ولا «كالمياه» وإنما كلمة واحدة منكرة هي ﴿ كَمَآءٍ ﴾، والعجيب أنه في هذه الكلمة وحدها نجدها من الكلمات التي تتدخل فيها عبقرية اللغة إلى حد بعيد جدًّا.. كلمة ماء.. تكاد تتكون من لا شيء.. لأنك ما ن تفتح فمك بالميم حتى تنتهي الكلمة.. فكأنها لا شيء.. فأنت إذا وضعت كفة إنما مثل الحياة الدنيا في هذا السياق كله كماء.. كل التنوع والصور والاختلافات في هذه الحياة تشبه بهذه البساطة الشديدة التي تكاد تتلاشى.. وتكاد الكلمة حتى من الناحية الصوتية تحس بحروف معينة تنحت وتصل الأذن وتحفر لنفسها مكانًا.. وإذا سمعت كلمة ماء، فهذا هو الإيحاء باللاشيء الذي يوضع في مقابل الشيء الذي نظنه كبيرًا جدًّا.. ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ ﴾ هذا الماء تبدأ- بهذه الطريقة من طرق التصوير الفني في القرآن الكريم – النقطة الصغيرة جدًّا منه في النمو وحدها.. هذا الماء أنزلناه من السماء، والملاحظ هنا أن الإنزال مرتبط أيضًا بفعل الإرادة العليا وليس «نزل» باعتباره أداة من أدوات القوة الكونية الكبرى.

وهذا الماء الذي أنزلناه من السماء كنا نتصور أن يقول فاختلط بنبات الأرض ولكنه قال ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾، الذي يحدث هو هذه الصورة المقلوبة.. أنت تتصور أن النازل من أعلى هو الساعي، وهو المتحرك، وأن المستقر في الأرض هو الثابت، وأن المتحرك هو الذي يختلط بالثابت، لأنه الساعي إلى هدف معين، لكنك لا تعرف كيف تتحول الأمور بين الساكن والمتحرك، فإذا بالماء الذي نزل من

السماء يختلط به نبات الأرض، كأن هذا النبات يسعى هو أيضًا إلى الماء، وكأن له قوة عاقلة تحركه، إذا كان هناك هذا الماء.. هذا الهش، وهو هذه المرة أسند إلى قوة عليا ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ فإن مكون هذه القوة الفاعلة وُجد هذه المرة في الحبة.. فهي التي سعت فاختلطت بالماء، وليس الماء هو الذي سعى ليختلط بها، وكانت النتيجة هي وجود الخضرة والزرع والنمو..

وهذه المسألة توجد لها صور كثيرة في القرآن.. أحيانًا يبدو الزرع والخضرة بهجة.. لكنه هذه المرة مرتبط بالتشبيه بالحياة الدنيا التي يراد في هذه المرة أن يُهون قليلاً من قوتها التي نظنها قوة مطلقة، هذه النتيجة من اختلاط الماء بالحب حيث خرج زرع مما يأكل الناس والأنعام، وإضافة الأنعام هنا داخل هذا العطف تقليل من شأن الحياة الدنيا أيضًا.. إذا كان نتيجة هذا السعي، وهذه البهجة وما تظنونه حصادًا عظيمًا، فأنتم تتساوون فيه مع الأنعام أولاً بما يشبع البطون..

والواقع أن جزءًا من أهداف الصورة الفنية هنا هو التهوين من شأن الغرور البشري، وفي مواقع أخرى هذه القوة البشرية يُركز عليها عندما تكون للخير، وتُحمد وتُقوى، لكن -هنا- هذه القوة التي تظن أنها تستطيع أن تصنع شيئًا مستقلاً، وأن تهيمن على الأشياء، يراد أن ينزل التصوير بقيمتها شيئًا فشيئًا.. فالحصاد الذي تم يشترك فيه الناس والأنعام، وهذا هو غاية ما كان يمكن أن يتم الزهو به، ثم- لو تأملت بقية الآية- ستجد أن القوة الفاعلة لا يكاد يكون الإنسان فيها طرفًا، حتى إن اختلاط الماء بالحب الذي سعى إليه، وليس الماء هو الذي سعى إلى الحب، هذا الاختلاط نفترض أنه أتى ثماره الأولى فأكلها الناس والأنعام، وأنضج ما يمكن أن يُنضج، وأخذت الأرض زينتها.. وهنا نجد ملمحًا آخر في هذا السياق يريد أن يقول للإنسان أنت مجرد طرف في كائنات كونية كبرى، ولست مهيمنًا، فليس الذي يحرث ويبذر هو الذي زين الأرض، وليس الإنسان هو الذي جعلها تزدان، ولكن الأرض في هذا السياق تأتي فاعلاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾.. هذا هو المحور الأساسي للفاعل الحقيقي، وفي مقابلة وهم لابد أن يشار إليه حيث يظن أنه هو الذي صنع الزينة، أو صنع الإنبات أو هو الذي زخرف، ويظن أنه بذلك وبرؤيته لدورة الفناء الذي كان موجودًا قبل أن يختلط النبات بالماء، والبقاء الذي آل إليه

الأمر بعدما أنبت ما أنبت، وبعد أن أخذت الأرض زخرفها وازينت، يظن هذا الكائن أنه هو الذي صنع هذا.. ومن هنا يأتي في مقابل الفاعل الحقيقي الفاعل المزيف ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ..﴾ تأتي اللوحتان المتقابلتان.. القوة الفاعلة الحقيقة، والقوة الواهمة، والواهمة تريد أن تجني الحصاد فيما هو أبعد من الحصاد الظاهر.. الحصاد الأول كان فكرة البقاء والفناء.. دورة الزرع والإنبات ورؤية الحصاد.. القوة الفاعلة التي وراء هذا هي الماء والنبات الذي يسعى إلى الماء، والأرض التي تأخذ الزخرف، والأرض التي تتزين.. هذه هي القوة الفاعلة الحقيقة، الفاعل الوهمي هو الظن بالقدرة على هذا، وبما هو أبعد من ذلك، من أجل هذا فإن هذا الغرور الذي يريد أن يتحطم إذا بلغ درجة العتو، وإذا تجاوز الحد، فإن الأمر الذي يحرك هذه الكائنات بدءًا من الماء.. ليس محددًا بالزمان.. يمكن أن يأتي الأمر ليلاً أو نهارًا.. بمعنى أن هذه الدورة الزمنية التي ظن الكائن أنه هو الذي صنعها ونماها، واغترّ بها، وأراد أن يذهب إلى ما هو أبعد، فيظن أنه قادر على مقادير الكون.. هذه كلها رهن بإشارة القوة الفاعلة الحقيقة.. الأرض التي يأتيها الأمر فإذا بها ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، وهذا الأمر من الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا النحو تتحرك جزئيات الآية في بنية فنية محكمة حُسب فيها كل شيء بدءًا من أطراف التشبيه المعرفة المزدوجة في ناحية، والمنكرة المفردة في ناحية ثانية، وبدءًا من التصوير المقلوب يقول البلاغيون: الشيء الذي يسعى كأنه يُسعى إليه، أي العكس، وبدءًا من القوة الفاعلة التي هي متلقية الأوامر مباشرة من الخالق، والقوة الواهمة، والعلاقة بين القوتين، ثم الأمر الذي يمكن أن يأتي لكي يرد الأشياء إلى طبيعتها في سهولة ويسر..

ونلاحظ قوله تعالى في الفاصلة: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعطينا الهدف من هذا التصوير، ومن تلك الصورة البديعة وهو الوصول إلى مرحلة التفكر آخر الأمر، وكسر حدة الغرور البشري.

وأيضًا نلاحظ كلمة ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾.. ومثلها ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [النور: 58]. وفيها فروق دقيقة جدًّا وأنت هنا تعود مرة أخرى إلى فكرة التفصيل والإجمال، فلابد أن تجد أن ما يطرح أحيانًا في شكل صورة عامة جدًّا عن الحياة

متاع الغرور.. صورة عامة جدًا لكن ما يُطرح هنا عن الحياة ماء وقطرة ونبات واختلاط وزخرفة وتزين وأرض وقوة فاعلة وقوة واهمة وزمان وأمس ويوم.. هذا هو معنى تفصيل الآية التي قد تساق في معرض آخر مجملة جدًا وتؤدي هدفها.. ففي معرض كالذي نحن فيه مفصلة مدققة، لكن أيضًا هذا التفصيل ليس لكل الناس؛ لأنه ليس كل من يفتح عينيه يرى، ولا كل من يفتح أذنيه يسمع، ولا كل من تُفصل الآيات أمامه يهتدي من التفصيل إلى نتيجة.. لابد بالقياس إلى هذا أن تكون الخاتمة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذه التذييلة الأخيرة ترد الاعتبار إلى الكائن الذي حُطم غروره، فإن تحطيم الغرور ليس مقصودًا به كل إنسان، فالإنسان الكائن المفكر هو أيضًا سيد هذا الكون.. عندما يتفكر ويرى، وهو الذي استُخلف.. يرى كيف تكون الآيات مفصلة له.. يكون عاقلاً ومفكرًا ومتدبرًا لمعنى الآيات يصل منها إلى هذه النتيجة التي أرادها الخالق عز وجل..

- **صور «الماء» في سورة النور: تقنيات المزج بين صورتين:**

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 39 -40].

هنا يتعرض في الآيتين أيضًا للماء والبحر والموج، حيث يتعرض الإعجاز القرآني لدرجات متفاوتة، ومعجزة التصوير بالفعل، وهو يصور الماء، وعلينا أن نتذكر أولاً أن السراب درجة من درجات الماء.. الماء الموهوم.. هنالك ماء يُرى وهو غير موجود، يحسبه الظمآن ماء، والسراب استعمل كثيرًا جدًا في القرآن باعتباره أيضًا ظاهرة صحراوية، وماء المتعطش الظمآن الذي يظن أن أمامه ماء، وأنه إذا وصل إلى نهاية الطريق وجد شيئًا.. في هذه الآية تأتي البنية التصويرية أولاً بنسق تصويري في القرآن ربما نكون قد تعرضنا له من قبل. في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ..﴾ ليسوا هم السراب.. هذا السراب ﴿بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ..﴾ نحن هنا عندما نعيد قراءة الصورة سنجد شيئا عجيبًا، سنجد أن أمامنا صورتين تم المزج بينهما، فعندنا

صورة أولى على مستوى حسي.. عندنا ظمآن موجود في صحراء، وأمامه سراب.. هذا الذي يسافر في الصحراء وأمامه سراب إذا جاءه ماذا سيجد؟ سيجد أنه ليس هناك ماء.. انتهت المسألة.. هذه صورة.. وعندنا صورة أخرى مستترة.. كافر عنده أعمال غير حقيقية موهومة، وأنه يظن أنها تقوده إلى الخير فيأتي في نهاية الطريق فيجد الله عنده لكي يعطيه حسابه.. على مستوى التصوير الفني تم المزج تمامًا بين الصورتين، فنحن لم نجد الصورة الثانية مفصلة.. بمعنى أننا عندما انطلقنا من صورة الراكب في الصحراء، وصورة القيعة الموجودة والسراب الموجود، فكان المنطقي أن نصل في النهاية أن نجد رمالاً، أو نجد جفافًا، أو نجد لا شيء، لكن هذا الراكب نفسه عندما وصل إلى نهاية السراب وجد الله عنده فوفاه حسابه..

الراكب لم يجد الله عنده، لكن الصورة المستترة، وهي الكافر أو غير المؤمن الذي يبذل أعمالاً لا طائل وراءها، وهي كالسراب، هو الذي يجد عنده المحاسب الذي يعطيه حسابه، هذه هي اللمسة الأولى في طريقة التصوير الفني.

ثم تتصاعد المسألة، أولاً تجد كلمة (أو) وهذه تأتي كثيرًا في التصوير القرآني، وتعدد الصور لا يأتي تعددًا عفويًّا، وإنما يأتي لبدء الانتقال من شيء.. أنت عندك السراب.. وهو حالة من حالات توهم الماء الخفيف، وفي كل الحالات هي حالة مرتبطة بالضوء.. هي حالة من حالات انكسار الضوء في الصحراء وإيهام النفس بوجود الماء.

- **تصوير طبقات الظلام وتجسيد النمو على المستوى الرأسي:**

الصورة الثانية تبدأ بالظلمات، وهي أساسًا عكس فكرة مكونات السراب، وهي مكونات الضوء التي يتم الإشارة إليها.. لكن فُهمت ضمنًا من بنية الصورة الأولى.. وهذا المعنى إذا أخذناه في الحسبان وهو معنى تأثير الزمن.. ديمومة الزمن على فكرة الأعمال الجوفاء معناها أنها محاصرة ومحكوم عليها بالبطلان ليلاً ونهارًا.. لكن تأمل في فكرة صورة الظلمة.. أولاً الظلمة جاءت في بحر لجيّ، وهي تمامًا مقابلة للصحراء التي تمت فيها صورة السراب الأولى، ومقابلة من حيث الكثرة والقلة.. العدم والوجود.. تمامًا لفكرة السراب التي معناها أن لا ماء على الإطلاق، والبحر الذي يعني الماء الكثير جدًّا، كما تقابل النهار الضمني في

بنية صورة السراب بالظلمة الصريحة هنا في بنية البحر، فعلى الرغم من التباين الشديد في الصورتين فإنهما تؤديان في نهاية الأمر إلى غرض واحد.

وتأمل في فكرة النمو الدقيق لبنية الصورة الثانية.. وتأملها على المستوى الرأسي، والمستوى الأفقي لكي ترى كيف تُبنى الأشياء.. ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ﴾ [النور: 40] ومعنى هذا أن بنية الصورة أمامك بنية رأسية صاعدة من أسفل إلى أعلى.. تتراكم الأمور.. بحر ومن الطبيعي أن يكون في الأسفل، ظلمة فوق سطحه، وهنالك الموج فوقه الموج الآخر، فوقه السحاب، وهذه البنية الرأسية الصاعدة يؤكدها الاستنتاج ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾..

هذه الصورة الموجودة التي كادت تعزلنا قليلاً عن النبع الأول.. فكرة الأعمال والكفار.. أصبحنا داخل تقنياتها في بنيتها الرأسية المتصاعدة المتعاقبة جزئية بعد جزئية.. في وسط هذا التصوير الكبير جدًا.. لأنك عندما تقول: بحر.. ظلمات.. أمواج فوقها أمواج.. سحاب.. تكاد تحيط بالكون.. تجد صورة شديدة الصغر.. ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فتجد أيضًا تقابلاً عجيبًا ودقيقًا بين أعظم الأشياء وأصغرها.. تمامًا مثلما حدث في فكرة سم الخياط وفكرة الجمل [التي في سورة الأعراف]، وفكرة الكائنات الكبرى التي تقابل بالكائنات الصغرى، وهذا جزء من إعجاز ودقة تركيب الصورة في التعبير القرآني كما رأينا..

وهذا الترتيب كما رأينا رسم لنا خطًّا يصعد من أسفل إلى أعلى.. عندنا بحر.. عندنا موج فوقه موج.. عندنا ظلمات.. عندنا سحاب متراكم وعندنا كما قلنا: صورة مقابلة تشكل أصغر الجزئيات في مقابل أكبر الجزئيات.. في مقابل الجزئية الكبرى للكون.. الظلمة والبحر والأمواج والسحاب، نجد إخراج اليد ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾.. ولابد أن يتساءل الإنسان هنا: يد من؟ لأننا عندما نعيد تشكيل الضمائر التي تربط الآية.. سنجد أن الآية تبدأ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ..﴾ عندنا هنا حديث عن جمع غائب.. ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ ..﴾ وعندنا بداية من الظمآن تعود ضمائر المفرد الغائب.. الظمآن كان في حالة السراب.. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا..﴾ وقد بينا أثناء تحليل البنية الأولى لهذا التشبيه أنه ليس الظمآن

الذي جاءه ولم يجد شيئًا، بل إنه الكافر.. والكافر ذُكر في البداية جمعًا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ.﴾ فقد تسرب بالصمت إلى داخل الصورة باعتباره نموذجًا ينطبق على صورة الظمآن دون أن يُذكر، واستمر الحديث متصلاً لكي يعيد هذا الضمير المفرد الغائب على الكافر غير المذكور لأنه ارتبط في التصوير بفكرة الظمآن فجاءت ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ..﴾ وهذه مسألة أيضًا جزئية من اللوحة شديدة الدقة والجمال.. أخرج يده من أين؟ هذه مسألة أولى، وليست الفكرة أنه يصعب عليه أن يرى اليد، لكن الإنسان يضع يده في ملابسه، في جيبه، أي يضعها في ظلمة نسبية، وهو لماذا يريد أن يرى اليد؟ إنه فعلاً- هذا المشهد وحده- يعطي إيحاءً بأنواع أخرى من الاضطراب.. أي أنه يشعر من شدة هول الموقف بأن عضلاته تفككت، وهو يريد أن يتأكد من وجود جزئياته.. هنالك فرق بين ترى أو لا ترى.. يد جارك أو يد كائن آخر وبين أن ترى أو لا ترى يدك.. أن الذي أخرج يده، بدأ بفعل إرادي، وبدأ يحرك عضوًا من مكان إلى أعلى.. وهذه المسألة هي التي تعين البصر على الرؤية.. لأنها محاولة متعمدة من بقية الأعضاء، ومع ذلك فشدة الظلمة تجعل هذه اليد التي كادت تُحس بالفقدان نتيجة للاضطراب، وهذه اليد التي ساعدتها قوى أخرى إرادية تخرج من ظلمة نسبية إلى ما تظن أنه ضوء لا تكاد تُرى.. هذا المشهد الصغير إلى جانب المشهد الكبير بين أنه ليس هنالك ضوء إلا الضوء النسبي.. ليس الضوء معناه تجمع أشعة لأنه قد تتجمع الأشعة بالنهار فتريك سرابًا، وقد تخرج الأشعة من العين على اليد التي خرجت من الجيب فلا ترى شيئًا، فالنور المطلق هو الذي ختمت به الآية، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

فكل محاولات للرؤية أو للإدراك أو للاستفادة من معطيات البصر، ما لم تكن مدعومة برصيد آخر على مستوى العقيدة والإيمان، محاولات فاشلة سواء على مستوى الرؤية البصرية؛ لأنها تقود للسراب، أو على مستوى الرؤية العضوية؛ لأنها تأتي في الظلمات، وليس هناك إلا نور واحد إذا لم يوجد فليس هنالك نور..

عندما نصل إلى هذه المنطقة، ونحن عندنا الضمائر التي تعود مفردة غائبة على الظمآن هي التي تعود نفسها على الكافر، فإن الصورة تعطيك كل الإيحاءات دون أن تقول هذا بطريقة مباشرة.. لكنها تضعك في أساس الموقف.. أخرجتك

الصورة إلى النور من هذه الظلمة، وأخرجتك من خلال رسم تصاعدي يصعد من أسفل إلى أعلى، فنرى كيف تحدث في بقية اللوحة الجميلة..

- **تصوير أسراب الطير وتجسيد النمو على المستوى الأفقي:**

الرسم المقابل.. الرسم التنازلي من ناحية.. والرسم الأفقي من ناحية ثانية، سنجد أن الصورة عندما تخرج بصفة عامة إلى النور.. والصورة كلها تنتمي إلى سورة النور.. وهذا هو العنوان الأساسي للسورة، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: 41-42].

فإذا تأملت الآن بعد الصورة التي رأينا بوضوح أنها صاعدة من البحر فالظلمة فالموج.. سوف تجد في هذه الآية الهادئة تمامًا بعد هذه الآية العاصفة تمامًا.. ستجد مجمل الأبعاد الأفقية والرأسية للكون.. ستجد أولاً فكرة طرفي البعد الرأسي: يسبح له من في السماوات والأرض.. هذان هما طرفا الصورة في بعديها الأساسيين.. ستجد عندما تتأمل صورة الطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، فلا بد أن الصورة التي تنبعث في العين في مثل هذه الحالة هي صورة الفضاء الأفقي الرهيب المشمول بالوداعة والسكون والتسليم والانصياع والراحة.

فهذه الصورة من ناحية التصوير الفني تكاد تمثل – لا أقول خلافًا ولكن– انتقالاً في درجة الإيقاع، ودرجة التصوير الفني على مستويين: انتقال أولاً من هذه الأنفاس اللاهثة في وسط الظلمة، والبحر اللجي والأمواج التي يغشى بعضها فوق بعض، وهو تصور خانق يصل إلى درجة أن الإنسان لا يرى يده، ولا يحس بأعضائه، وهذه هي الصورة المحيطة بفكرة فساد العقيدة.. ذلك الذي يظن أنه يستطيع أن يستجلب النور من مجرد القوى العادية والقوى المادية ويفقد مصدر النور العادي، وإذا وضعت إلى جانبها اللوحة الثانية.. لوحة تسبيح الكائنات في السماوات والأرض وتسبيح الطير على نحو خاص، وكل قد علم صلاته وتسبيحه، بما يوحيه من تغير النغم، وجمال الإيقاع، وراحة البال، وحرية الحركة، ووضوح الرؤية، سوف تجد أنك في صور النغم الهادئ تمامًا في مقابل الأنفاس المضطربة، وأنت في صورة الأفق الواسع، والنور الذي لم يُشر إليه بالضرورة هنا، مع أنه

هناك كانت إشارة تمامًا إلى أن الذي يخبط في الظلمات يظن أن هناك بصيصًا من النور، هنا لم تتم الإشارة إلى النور، لكن أنت تستشعره تمامًا، وتكاد ترى الصورة الفنية..

وتكاد تسمع وراء فكرة صلاة الطير وتسبيحه إيقاعًا صوتيًّا آخر يعطي للوحة هذا النوع من الهدوء والجمال في وقت واحد..

- **بخار البحر ماء صاعد، والسحاب ماء هابط:**

ومن روائع التصوير أيضًا في هذه اللوحة الكبرى أنك بعد هذا سوف تجد صورة تنحو المنحى العكسي تمامًا.. صورة تبدأ أيضًا مع الماء، لكنها تبدأ من أعلى وتهبط إلى أسفل على عكس الصورة السابقة.. إذا كان التكوين الماضي قد بدأ بظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، فإن التصوير التالي ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ..﴾ إنك لو تأملت جزئية الصورة التي تتكون بعد هذا ستجد أن الفكرة ستبدأ من تكوين السحاب في أعلى، والتأليف بينه، وجعله ركامًا ونزوله من السماء في شكل ماء.. ستجد في جانبي اللوحة هذا التصوير الأول التصاعدي الرأسي، وفي الوسط هذا التصوير الأفقي الواسع المستريح لحركة الطير في أجواء السماء، وفي النهاية هذا التصوير المضاد.. التصوير الرأسي النازل في صورة السحاب الذي تجمَّع وتشكَّل وتحوَّل إلى ماء ينزل من السماء.. هذا الذي يكمل هذا التصوير الفني لكي يفرق بين الضوء المفتعل والضوء الحقيقي؛ لأن الضوء نفسه سلاح ذو حدين، يمكن أن يكون الضوء هاديًا، إذا كان ضوءًا ذا منبع حقيقي، ونحن في حالتنا هذه من الناحية المعنوية أمام ضوء الإيمان، وهذا الضوء في هذه الحالة من شأنه أن يرشد وأن يقود الخطى، وممكن أن يكون ضوءًا يخطف الأبصار، إذا كان ضوءًا يراد منه أن يُوجه ليكون سلاح عقاب.. حتى الضوء نفسه أو النور الذي تتحول حوله السورة كلها سورة النور.. والذي أكدت عليه الآيات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ..﴾ هذا الضوء وهذا النور وارد أن يكون سلاح رحمة، ووارد أن يكون سلاح نقمة..

وكما يمكن أن يكون الضوء ضوءًا كاشفًا للسراب كما في أول الصورة الكلية لأن السراب لا يكون إلا في ضوء ونور.

كما قال الحق: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ..﴾ فهذا السلاح نفسه قابل لأن يستخدم في الحالتين.. على هذا النحو تكاد تكتمل الدورة التي بدأت من السراب، وهو الماء المتوهم، ووصلت إلى الماء العظيم في البحر اللجي.. لكنه الماء الذي أحاطت به الظلمة، فأصبح مصدرًا للرعب وعدم الاطمئنان، إلى الماء الذي تكوَّن في السماء ثم نزل لكي يكون غيثًا، وأحاط به ضوء ممكن أن يكون رحمة أو نقمة.. وهذا كله يقود الآيات المتسلسلة إلى الماء، الذي يمكن أن يكون مصدرًا للحياة، هذا الماء مرة أخرى هو الذي خلق الله منه كل دابة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ ..﴾ [النور: 45].

ستجد الصور المتصلة في هذه اللوحة يربط بينها هذا الخيط الدقيق.. خيط الماء.. السراب ثم البحر بظلماته، فالسحب بتراكماتها، فالماء الذي هو منبع الحياة، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور: 45].

على هذا النحو تبدو أجزاء الصورة ليست مجرد تمثيل أو تشبيه أو إعطاء لوعد أو وعيد، ولكنها تبدو وكأنها تخلق جوًّا نفسيًّا كاملاً لا يُكتفى فيه بإلقاء الأوامر، ولا بإلقاء الوعد أو الوعيد، وإنما يعيش المرء حالة مجسدة وكأنه يعيش العقاب أو الثواب قبل أن يحل به ويرى نتاج عمله هداية أو ضلالاً..

- **بين صورة البحر وكلمات الله في سورة لقمان**

ونلاحظ كذلك الربط في آيات القرآن الكريم بين صورة البحر وكلمات الله تعالى كما وردت في أكثر من موضع في آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ..﴾[لقمان: 27] ، وهذه آية على قصرها أيضًا تلقي صورة رائعة.. أولاً نحن نتحدث وقت نزول القرآن عن أناس معظمهم لا يكتبون، والآية تنتمي إلى مجال الإعجاز الكتابي.. إلى الناس الذين يفهمون الكلمات من خلال كتابتها.. الكتابة تتم من خلال قلم ومداد، والقلم يصنع من الخشب.. والخشب يصنع من الشجر.. فالبنية الأساسية لهذه الصورة المحكمة تبدأ

بالشجرة كمفردة، ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام.. الشجرة المفردة هنا هي اسم جنس، وهي أكثر في دلالتها من الشجر، ربما كلمة شجر بجمعها تكون أقل دلالة من شجرة في مثل هذا السياق، وخاصة مع حرف من.. ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾.. فكرة كل ما يُتخذ أداة للكتابة لو أنه تحول كله إلى أقلام في لحظة واحدة.. في مقابل هذه الشجرة المفردة جاء البحر المفرد أيضًا، والبحر لكي يكون أيضًا اسم جنس فأعطى الدلالة الأولى؛ لأن البحر هنا لا يراد به هنا هذا البحر الجنوبي أو الشمالي، أو القريب أو البعيد، أو الأبيض أو الأعظم.. لكن كل البحار.. لكن زيد على هذا المداد المتمثل في السائل الذي سيكتب به يمده سبعة أبحر.

ورقم السبعة يدل على هذه المبالغة في الآحاد، وإن رقم السبعين يدل على المبالغة في العشرات، والآية الكريمة عندما قالت: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80] كانت تقول: مرات لا نهاية لها.. حتى إن ما يُروى من حديث عندما قال الرسول ﷺ تعليقًا على هذه الآية: «لو أني أعلم أنني لو زدت على السبعين لغفر، لزدت» لكن كان المقصود هذه الكثرة اللامتناهية.

إذا كانت هذه الشجرة التي تدل على جنس الشجر، وأي شيء يصلح للكتابة، وهذا البحر الذي يدل على جنس الماء العظيم مزودًا بكل ما يأتي بمداد إلى ما لانهاية.. لو أن هذا كله.. ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، والعجيب ما الذي يحدث؟ إنك لو نظرت إلى جواب «لو» تتصور أنه لابد أن يقال في خلال سياق الكلام العادي: وحاول الإنسان أن يكتب بهذه الأقلام كلها، وإن نفدت البحار جميعًا.. لأن هذا هو السياق الضروري لكي نصل إلى: ما نفدت كلمات الله.. ليست هناك علاقة مباشرة بين بداية التصوير في المعنى المنطقي العادي، وهو يتحدث عن الأقلام، وعن البحار، وبين نفاد الكلمات إلا إذا تصورنا أن هذا هو الجزء الكبير الذي حذف أو تحول على سبيل الإيجاز.. لو أن هذا كله، وكانت محاولة الكتابة، وعليك أن تتصور أن تتم في أي زمن، في أي عصور، على يد كم من الملايين، وعليك أن تتصور أن هذا لا يمكن أن ينفد أبدًا، حتى لو نفد هذا كله ما نفدت كلمات الله..

هذا التعبير المصور الدقيق يدل إلى أي مدى يمكن أن تعطينا صورة البحر اللانهائية في رسم الصورة القرآنية العظيمة.. هذه الصورة تكاد تعود مرة أخرى بطريقة مختلفة قليلاً في سورة الكهف ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا..﴾ [الكهف: 109] والإنسان قد يتساءل: أي الآيتين أكثر دلالة على الأرقام اللامتناهية؟ لا تستطيع أن تعلم؛ لأن كل واحدة منهما تثبت شيئًا آخر، لكنها تدل على عبثية المحاولة لإحصاء الكلمات بمعنى الآيات، وبمعنى دلائل العظمة، عبثية محاولة أن نجعل لها حصرًا سواء جعلنا هذا الحصر في آذاننا أم في أعيننا أم بالمداد أم بالكلمات، فإننا دائمًا أمام عدد لا نهاية له، قد ينفد البحر نفسه، وعلينا أن نفهم أن البحر هنا اسم جنس، وليس بحرًا واحدًا بعينه، وعلينا ألا ننسى أن الآية قالت: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، وأن الذي سيجيء بالمدد هو خالق الكلمات نفسها.. يعني أن هذا هو إعجاز فوق إعجاز، أي حاولوا أنتم أن تنفدوا، وسينفد البحر وسنجيء بمثله مددًا، ولن تنفد الكلمات، فهذا هو جزء من التصور الذي سيعطيه لنا معنى البحر عندما يجيء مفردًا، وعندما يجيء سبعة أبحر، وعندما يجيء نكرة، وعندما يجيء معرفة، وعندما يجيء نافدًا، وعندما يجيء مسكوتًا عنه يدل على فكرة السعة واللانهاية والعظمة، وسعة عظمة الله في الكون، ومن آياته هذا البحر الذي لو استخدم نفسه مدادًا لصياغة الكلمات الأخرى لنفد البحر قبل أن تنفد الكلمات..

- **من صور ومشاهد القيامة في سورة الزمر**

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الزمر: 68-71] فهذا التصوير الرائع في هذا المشهد الرهيب، يجعل قارئه يجد نفسه- عندما يتأمل- أمام مشهد شديد الحيوية، استغلت فيه كل خصائص

التصوير والتجسيد واستغلت فيه كل وسائل التأثير الممكنة حتى كأن الإنسان وهو يتأمل جماليات النص يحس بصهد النار المقبلة ونسائم الجنة وهي مقبلة ويحس بكل جزئيات المشهد تدب حية متحركة، وبسهولة وتجميع كل الخيوط أمام القوة الإلهية العظيمة التي في يدها أمر البقاء والفناء.. وقد بدأ المشهد بلمحة تبين إلى أي حد من السهل على خالق الكون أن يجمع في نفخة واحدة النهاية، وفي نفخة واحدة البداية.

- **النفخ أهون الأفعال الإرادية:**

نحن عادة نتصور كلمة «نفخ» أهون الأفعال الإرادية عند الإنسان، وهي مجرد هواء يخرج من الفم، ونحن نعطي كلمة نفخ حجمها الحقيقي العادي: النفخ لا يحتاج إلى مجهود ولا إلى حمل، ولا تركيز، والإنسان حتى قبل الموت يستطيع أن يُخرج نوعًا من الهواء ينفخه من فيه، إذا كانت هذه النفخة الواحدة عندما تتم من قبل القوة الإلهية في الصور– أو من كلفهم الله تعالى بالنفخ في الصور– كفيلة بأن تصعق من في السماء ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخة أخرى كفيلة ليس فقط بأن تعيد الحياة في صورتها الأولى، بل تجعل هؤلاء قيامًا ينظرون؛ أي أن تعيد الحياة في قمة نشاطها.. فكرة الجمع أولاً بين الطرفين هي التي تجعل إمكانية تصوير إعادة الخلق وإفناء الخلق أمرًا ميسورًا.. أمرًا لا يستأهل أكثر من نفخة بالصور من أحد جنود الله.

- **دلالة غلبة المبني للمجهول:**

هذا هو المشهد الأساسي.. جزئيات الصورة عندما تتحرك بعد هذا تتحرك كما يحدث في تصوير المواقف الكبرى الكونية في القرآن من خلال أفعال تكاد تكون معظمها مبنية للمجهول ربما كما حدث في آية الطوفان.. ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ.. ﴾ [هود: 44]، ففكرة غلبة البناء للمجهول على الأفعال التي تجسد المواقف الكونية الكبرى تغلب على هذه اللوحة التصويرية العظمى، شأنها شأن كثير من اللوحات القرآنية، وفيما عدا ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا.. ﴾ سوف نجد الأفعال: وُضع الكتاب.. جيء بالنبيين.. قُضي بينهم بالحق.. وُفيت كل نفس ما عملت.. سيق الذين كفروا.. فُتحت أبوابها.. معظم الأفعال الواردة في النص الذي بين أيدينا أفعال مبنية للمجهول،

وفكرة البناء للمجهول في مثل هذا الموقف تشير من ناحية إلى أن المهم هو الحدث، وأنه هو الذي ينبغي أن يتم عليه التركيز بكل المهابة والرهبة والجلال.

وتشير من ناحية ثانية إلى أن القوى الكثيرة المتعددة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31] منبثة في كل شيء، وأنها تؤمر فتطيع، وأنها تنفذ من كل الأقطار المحيطة بالموقف، فليس إلا إشارة فيكون ميزان ينصب، أو باب يفتح، أو قضاء يقام، أو هكذا تتم الأمور على هذا النحو الذي يعطي أيضًا من خلال فكرة التصور الزمني الاختصار والسهولة.. فأنت عادة عندما تبني جملة للمعلوم فلابد أن تأتي بـ«أكل الطعام» فتختصر أولاً على مستوى الزمن وحده من الوحدات الثلاثة، وتختصر على مستوى تصور الفعل ركنًا من الأركان الثلاثة، وهذا أيضًا جزء مقصود عندنا في الحركة الزمنية السريعة، والحركة الزمنية تكاد تكون تلقائية في المشهد كله الذي يتحرك.

- **تأهيل مسرح الأحداث:**

المشهد يبدأ بالجلال قبل أن يشير إلى عناصر الرهبة والخوف والجلال، يتمثل في ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا..﴾ وإذا جاز لنا أن نستخدم التعبيرات المعاصرة، فهذا هو مسرح الأحداث الذي أُهل أولاً.. أهِّل المسرح بهذا الضوء الذي لا يوصف، ثم جاء الشهود لكي تُنصب المحكمة على نحو دقيق وعادل.. يَأتي الشهود أولاً بعد أن يُوضع الكتاب.. بعد أن يؤتى بسجل الأعمال لكي يوضع أمام كل امرئ.. يأتي الشهود.. النبيون والشهداء.. ويأتي القضاء الحق، فقبل أن تدخل في مواقف الرهبة، ومواقف العذاب، ومواقف العقاب، وقد قُدمت هنا على مواقف الإثابة..

.. قبل أن تدخل في هذا لابد أن تتأكد أن عناصر المشهد مهيأة لإقامة هذا كله على حق.. فالكتاب موجود، وهو الدليل العملي المحسوس لأفعال كل إنسان، والشهود موجودون ﴿وَجِايْٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ﴾، ثم القضاء الحق هو الذي يَضمن أن يُعطى كل ذي حق حقه، وتوفى كل نفس ما عملت، والحاكم الأعظم هو أعلم بكل شيء تم في السر والعلن، ثم تأتي المشاهد المتعاقبة.. والمشهد الأول منها مشهد الرهبة، والرهبة تأتي هنا في صورة أن تساق الجماعات زمرًا إلى حيث تتلقى عقابها.

قال الله- عز وجل-: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الزمر: 68-71].

- **سر «الواو» في استقبال أهل الجنة:**

ما أروع التصوير القرآني لمشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة، يبدأ بالنفخ في الصور لحظة الصعق، ثم ينتهي بوصول كل إنسان إلى ما يستحقه مؤمنًا كان أو كافرًا، هذا ما تصوره خواتيم سورة الزمر، الزمر هذه الحركة الجماعية التي تبدأ بمشهد الرهبة والعقاب، هؤلاء الذين يساقون زمرًا إلى جهنم، وعندما يأتون إلى الأبواب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، ولابد أن نلاحظ هذه الجملة التي تكررت مرتين، مرة مع الذين يساقون إلى جهنم، ومرة مع الذين يساقون إلى الجنة، فصل بينهما شيء بسيط جدًّا هو الواو، في السياق الأول ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾، وفي التعبير التالي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾، ينبغي أن نتساءل عن هذا الفرق الدقيق، وهذا الفرق الدقيق يكاد يلخص الفرق بين التكريم والإهانة، هذا الفرق هو مسألة (حتى إذا)، (إذا) هذه أداة تعطينا- لكونها أداة شرط- شيئًا وتبحث عن جواب له، عندما يجيء الأولون، بمجرد أن جاءوا، بدأ نوع العقاب، فتحت الأبواب، وبدأ تساؤل الخزنة، التساؤل التأنيبي، تقرير المذنب بما فعل، واستخلاص اعتراف صريح منه، حتى وهو داخلٌ الباب ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾، هذا هو الاعتراف الأول الذي تم استخلاصه في بداية جواب الشرط، هذه هي المساءلة الأولى، وهم يقولون: إن هذا حدث، لكن الاعتذار أنه حقت كلمة العذاب على الكافرين، فيقال لهم: ادخلوا إذن أبواب جهنم. سيقوا، فتحت الأبواب، وجِّهت إليهم المحاكمة التأنيبية، مع أنها مسبوقة بقضاء

محكم كان الكتاب موضوعًا فيه، وكان الشهود موجودين، وكان القضاء بالحق، وكان العالم بما يفعلون هو الله- سبحانه وتعالى- ومع ذلك فقد سُئلوا، فأجابوا، فدخلوا أبواب جهنم.

- **جواب «إذا» بين الجنة والنار:**

عندما نتصور اللوحة التالية: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: 73]، لقد أخرت الواو جواب الشرط أيضًا، لم نعرف أين، ليس إذا جاءوها فتحت، حتى إذا جاءوها، يكون الجواب: فتحت، لا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾، هذه المرة- وهذا هو الفرق- اللقاء ليس لقاء تأنيب، ولا أخذ اعتراف من مذنبين، ولكنه لقاء تكريم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: 73-74]، لم نجد جواب (إذا)، مع أننا في اللوحة الأولى وجدنا ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، وبدأت المحاكمة، في اللوحة التالية، لك أن تتخيل ما تشاء، ما دام اللقاء بدأ بالسلام، وبدأ بالتكريم، والداخلون حمدوا الله على أن صدقهم وعده، وأنه أورثهم الأرض، والملائكة حافون من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، وقضي بينهم بالحق، وقيل الحمد لله رب العالمين، ولم يأتِ جواب (إذا)؛ لأنك تستطيع أن تتخيله، أما في اللوحة الأولى فالمسألة محسومة، إذا جاءوا فتحت الأبواب، وبدأت التساؤلات، وبدأ الإقرار من المذنب بما صنع، وبدأت المحاسبة منه عقابًا على ما قدّم، وهنا أحدثت الواو هذا الفرق الكبير بين مشهدين متعاقبين.

نحن أمام صورتين مختلفتين، صورة أصحاب الجحيم، ونتيجة ما تم من قبل من حساب، أنهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه من أن يساقوا حتى يصلوا إلى هذه المرحلة، فأتى إلى تذييل هذا الجزء الأول، فنجد ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 72]، فإذا جئنا إلى الصورة الأخرى، وجدنا لها تذييلاً آخر، وهو ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾. ينبغي أن نلاحظ أن التذييل الأول جاء في نهاية: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، والدلالة اللغوية أن هذا التذييل جزء من تأنيب ملائكة العذاب لهم، قالوا

لهم هذا بعد أن أمروهم أن يدخلوا أبواب جهنم، عندما استخلصوا منهم اعترافاتهم بما صنعوا، وجاء التذييل التالي في نهاية: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[الزمر: 74]، بمعنى أن التذييل الثاني متلو بقالوا، مع أنه ليس تشييعًا كالآخرين الذين أصبحوا غير قادرين على قول أي شيء- كما نفهم من السياق- لا تعقيبًا ولا ذمًّا ولا مدحًا، فبعد أن سيقوا أصبحوا أدوات جامدة، فقيل لهم: بئس، استكمالاً للسؤال والجواب والإقرار، بينما التذييل الذي جاء بعد (قالوا) يمثل امتدادًا لحمد الله وشكره، فهذا فرق أساسي في بنية التذييلَيْن بالقياس إلى الفعل السابق على كل منهما، الفرق بين الخاتمتين.

ولنلاحظ بعد ذلك فكرة الفرق بين (مثوى) و(أجر)، المثوى، بما يعطيه من قيد، عدم حرية حركة ونهاية باقية، والأجر بما يعطيه من فكرة أن البقاء ليس بهذا المعنى المقيد، ولكنه التمتع بنتيجة العمل، وفرق بين (المتكبرين) و(العاملين)، مع أن المتكبر قد يكون عاملاً كذلك، لكنه عامل بغير حسن نية، وعامل بقدر كبير من الغرور، ولم يقابل المتكبر بالمتواضع، ولا العامل بالخامل، بل قوبل المتكبر بالعامل، ومعنى هذا أن العاملين تحتاج إلى صفة أخرى، أن تكون العاملين في إخلاص؛ لأن المتكبر قد بُدِّد عمله ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: 23].

سورة هود

• **فكرة النظم عند عبد القاهر وأثرها في الإعجاز القرآني:**

مازلنا نحاول التعرف على الإعجاز القرآني وقد تناولنا من قبل عبد القاهر الجرجاني وكتابه دلائل الإعجاز، وقد أرجع عبد القاهر الإعجاز إلى فكرة النظم، وهي تنفي أن يكون الإعجاز منوطًا بالحرف في ذاته وحده وكذلك ليس الإعجاز في الكلمة ولا المعنى ولا الغرابة، وإنما النظم كما يعرفه عبد القاهر: حين يقول: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو»، وهذا كلام يبدو عامًّا جدًّا، ولكن يبدو تفسير الكلام أكثر سهولة لو أننا بسطنا الأمور، علم النحو- كما يقول عبد القاهر- ليس هو فقط النحو الذي نفهمه الآن، ولكنه علم التراكيب، كيف تحسن اختيار العنصر المفرد وكيف تحسن وضعه في المكان الذي لا يجوز أن يوضع في غيره، عنده إذًا عنصران للنظم: عنصر الاختيار وعنصر التأليف؛ وقد استفاد عبد القاهر من الفكرة العامة للفنون، فما معنى اللوحة الجميلة، ما معنى البناء المعماري الجميل، بم يتميز مهندس معماري عن مهندس معماري آخر؟ يتميز بأنه يحسن اختيار المادة الخام أولاً ويحسن التنسيق بين المواد الخام وصلة بعضها بالبعض ويحسن وضع كل شيء في مكانه، فأنت لو فككت أي مبنى عادي فستجد أن المبنى عبارة عن كتل من الطوب أو الأحجار أو الأسمنت تراصت بجوار بعضها البعض، وأنت لو أعطيت هذه الكتل لاثنين مختلفين فسيبدو الأثر في البناء، فصاحب البنية الفنية سوف يجيد التشكيل، فيضع الفتحات في مكان، والمداخل في مكان، والارتفاعات في مكان، وينسق المادة تنسيقًا تنبهر به عندما تراه، أما صاحب الذوق الهابط فسوف يجمع هذه المادة أيضًا بطريقة تنقبض لها النفس ولا ترتاح لها العين، مع أن المكونات واحدة، وقد يضع مادة غالية في مكان غير ملائم، قد تعطيه قطعًا من الرخام الجيد فيضعها- مثلاً- أمام الناس في حجرة الجلوس- مع أن موضعها المناسب في مكان آخر- فلا تكون جودتها في ذاتها شفيعًا لها في كل مكان؛ كيف تختار المادة، وكيف تنسق بينها وبين المواد الأخرى، وكيف تضع كل شيء في مكانه؟ هذا هو النظم، وقد انطلق عبد القاهر من هذا الفهم المبسط- كي يقول إن الإعجاز

القرآني يكمن هنا تمامًا، فأنت لا تجد حرفًا واحدًا، حرف جر أو حرف عطف، يغني مكانه حرف سواه، وأنت لا تجد صيغة فعل ماضية كان يمكن أن تكون مضارعة، ولا صيغة أمر كان يمكن أن يحل مكانها اسم، ولا اسم، كان يمكن أن يستبدل به ظرف، ولا نسق للجملة يمكن أن يؤخر أو يقدم على غير ما كان عليه، ويواصل عبد القاهر هذا التلمس الدقيق لمعنى كيفية اختيار جملة ما وحرف ما ورابط ما، بل وكيف نسكت عن كلمة ما فتكون محذوفة ونذكر أخرى فتكون مذكورة، وكيف نطيل البنية أو نقصرها أو نربط بين بنيات متقابلة أو نضع شيئًا في مقابل شيء، هذه الوحدات الصغيرة في الجملة والبنية اللغوية والتي من همِّ الدرس الأدبي الجميل أن يحاول التعرف عليها، وجدها عبد القاهر -كما يقول- في الشعر في مواطن كثيرة وجميلة، وارتقى بها الناس من استخدام عادي إلى استخدام متوسط إلى استخدام جميل إلى استخدام أجمل إلى استخدام أروع، وبلغت فيه قمة إعجازها في النص القرآني بلوغًا لا يدين المستويات الأخرى وإنما يعلمها، لكي يكون هذا المستوى المعجز في بنية النص اختيارًا وتأليفًا معجزًا في ذاته وواقفًا في وجه أي محاولة للتقليد والتحدي ولكنه في الوقت ذاته مشف ومعلم؛ هذا هو التصور النظري العام الذي قدمه عبد القاهر- لما سماه- بفكرة النظم، وقال إنه أن تضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو وطرح تطبيقاته الكثيرة على الشعر في كثير من الجوانب وأعطى لنا لمحات على بعض التطبيقات في النص القرآني.

وربما يحسن قبل أن ندخل في تفصيل التطبيقات ونحن نستعرض القضية- أن نشير إلى أن التلميحات السريعة من عبد القاهر كانت محل عناية من بعض من جاءوا بعده ومنهم الزمخشري مفسر القرآن الكبير، عندما وقف في كتابه الكشاف لكي يحاول أن يجعل تفسيرًا كاملاً للقرآن يبنى على فكرة النص البلاغي، وربما يحسن أن نشير إلى أن هذه الطريقة التي بثها عبد القاهر تنظيرًا وبثها الزمخشري تفسيرًا هي التي اهتم بها علماء كثر في العصر الحديث من خلال التأويل البلاغي للنص، وكانت اهتمامات الشيخ محمد عبده نابعة من هذا المنبع البعيد، ومازال كثير من الدارسين المعاصرين يحاولون الآن أن يستلهموا فكرة عبد القاهر القديمة في النظم، وأن يقرءوا النص القرآني على أساس هذه النظرة الجمالية العظيمة التي فتح بابها عبد القاهر الذي ربما لم يطرح التطبيقات الكثيرة وربما كان

حجم التطبيق الشعري عنده أكبر في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، لكن اللمحات الفعلية التي أعطاها لنا هي التي فتحت باب المجال التطبيقي الطويل عند الزمخشري وعند العلماء المعاصرين وظلت لمحات عبد القاهر تحمل نكهة خاصة يمكن الوقوف أمامها مثل الآية الكريمة التالية.

- **تحليل بنيوي لآية الطوفان:**

سورة هود الآية 44 ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

حقيقة كان لعبد القاهر فضل الإشارات الأولى لما تضمنه هذا النص القرآني- إلى جانب نصوص أخرى كثيرة- من هذه القيم التي سماها هو قيم النظم، كيف تختار المفردة؟ ليس فقط باعتبارها لفظًا مفردًا، ولكن باعتبارها صيغة، وكيف تتلاحم مع باقي الصيغ؟ هو يقف أمام هذا النص الذي يصور مرحلة من مراحل الطوفان هي المرحلة الأخيرة، مرحلة انتهاء الطوفان من أداء عمله الذي أريد له أن يطهر الأرض والرغبة في أن تعود الحياة إلى مجراها العادي، ومن ثم فهي رغبة تريد أن تعود الحياة وتستتب بأسرع ما يمكن أن يكون، وأن تزول كل أسباب الدمار التي قضت على الحياة الظالمة السابقة، والآن مطلوب أن تعود الحياة الكريمة لتنبت على الأرض؛ وهذا النص تشكل من مجموعة من الأفعال؛ قيل وهو فعل ماضٍ، وابلعي وأقلعي فعلا أمر، وغيض فعل ماضٍ وكذلك فضي واستوت وقيل، لكن الملاحظة الأولى على الأفعال الماضية التي وردت في هذه الآية أنها جميعًا مبنية للمجهول فيما عدا فعلاً واحدًا هو استوت، وأن البناء للمجهول هنا- شأنه شأن كثير من ألوان السياق القرآني- يعطي نوعًا من الرهبة العجيبة جدًّا، من الذي قال؟ ليس المراد أن يقال: وقال الله، أو قالت الملائكة، أو قال جبريل، ولكن قيل، مسألة أن يكون الأمر في ذاته هو الذي يتحول إلى محور الرؤية، بمعنى أن ينبت في الذهن إحساس بوجود جنود الله الخفية ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31] فلم يذكر من الذي يصدر الأوامر والتعليمات ويرتب الأمور في هذه اللحظة، بل قيل وغيض وقضي وقيل، وكلها أفعال تصدر من مراكز إشعاع غير مرئية لكي ينفذ الأمر على أسرع ما يمكن أن يكون، والمرة الوحيدة التي ورد فيها الفعل مبنيًّا

للمعلوم، وهي «استوت» لم يذكر الفاعل (السفينة) في الآية ولا ذُكر ضمير قريب يقودنا إلى الفاعل، وكأن السفينة وهي الفاعل دخلت في إشعاع البناء للمجهول، وهو الجو العام الذي يسيطر على مناخ الآية.

ويجب أن نتنبه إلى أن الأوامر والأقوال والنداءات في الآية موجهة إلى غير العاقل في عرفنا البشري، فالقول لابد أن نتصور صدوره من مرسل وتوجهه إلى مستقبل، فنحن نخاطب بالقول من يعي معناه ويقدر على تنفيذه وكذلك النداء، وكأن الآية تجري نوعًا من المقابلة غير المرئية بين العقلاء الذين هم البشر وقد قيل لهم: أطيعوا، فلم يطيعوا، وتكرر القول على مسامعهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يطيعوا أيضًا؛ وها هو القول والنداء يتحول إلى من يظن أنه من غير العقلاء فإذا هو في لمح البصر يستجيب ويتحول إلى جزء من الجنود، وتدخل أيضًا معنا عملية الاختزال الجمالي عندما يقال «وقيل يا أرض» ولا يقال (وقيل يا سماء)، مع أن القول موجه إلى الاثنين، ولكن هذا مقصود به رسم الصورة في غاية التكثيف فيما يمكن أن يسمى بلحن الافتتاح- لو أجزنا لأنفسنا هذه التعبيرات المعاصرة، هذا القول يتحرك في درجة النداء الأول المتلو بأمر، وينبغي أن نتذكر أن معنى النداء والقول والأمر كلها تنتمي إلى باب واحد في التصور اللغوي، فأنت لا تأمر إلا من يمكن أن يطيع، لا تأمر الكرسي ولا الباب ولا الحائط، ولكن تأمر الصبي وتأمر المخالف، فأنت توجه الأمر إلى من يمكن أن يستجيب أو لا يستجيب، كما توجه القول والنداء، وهذه الأمور التي قد تبدو في الظاهر متباعدة- تجتمع في بنية النظم في الآية، وكلها في الحقيقة تنتمي إلى عائلة واحدة، عائلة تتوجه على مستقبل يكون أهلاً لسماع القول وإجابة النداء وتنفيذ الأمر، فإذا بنا نجد العناصر الثلاثة موجهة إلى كائنات غير عاقلة.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 44].

نحن حين نستعرض أفعال الأمر الموجودة في هذه الآية الكريمة نجد فعلين (ابلعي) و(أقلعي)، وسنجد أيضًا أن الأمر موجه إلى غير عاقل، فالأمر شأنه شأن القول والنداء من مواد القول التي توجه إلى مستقبل يمكن أن يؤمر فيطيع

أو يعصي، وأن ينادى فيجيب أو يعرض، وأن يقال له فيسمع أو يصد، لكن توجيه النداء أو القول أو الأمر إلى غير العاقل في الآية بين لنا مدى قصور إدراكنا عن إدراك الحياة والعقل فيها، لكنها عند خالقها عاقلة كلها، وكلها تؤدي دورًا معينًا في بنية الوجود، وهذا الدور نفسه يمكن أن يكون مدمرًا أو بانيًا حسب الموقف، فالماء الذي تحت أقدامنا يمكن أن يكون مبعثًا للحياة والري أو للإهلاك والغرق و النار التي حولنا يمكن أن تكون مبعثًا للدفء والحرارة أو للإبادة، فهي كائنات يوجهها خالقها لما يناط بها.

الأمر الذي وجه للأرض هنا هو (ابلعي ماءك)، وهذا أمر فوق كونه أمرًا موجهًا إلى غير عاقل يتطلب التأمل في اختيار مادة الفعل، فنحن في موقف يراد فيه أن تعود الحياة إلى الأرض بأسرع ما يمكن، والأرض فوقها كميات هائلة من المياه تجب إزالتها، ولذا من المنطقي ابتداء أن تكف الأرض عن إخراج مزيد من المياه، ثم بعد ذلك تمتص الأرض المياه أو تشربها، لكن الفعل الذي تم اختياره هو (ابلعي)، وذلك لأن كل فعل له رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، وقد كان الفعل الذي أحدث الطوفان رهيبًا ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 11، 12] فالماء الصاعد من الأرض كان قد تفجر عيونًا، ولابد أن نلاحظ التفجر ونلاحظ العيون، ولابد أيضًا أن نلاحظ لكي نقيس مدى قوة المياه قياسًا بصريًا- أن هناك ماءً هاطلاً من أعلى وماءً صاعدًا من أسفل، ولذا لابد لكي تزول أثر هذه القوة المندفعة- أن تكون الأفعال الموجهة بنفس قوة الأفعال الأولى في اتجاه مضاد، فلا يكون الفعل المضاد لـ(فجرنا الأرض عيونًا) اشربي أو امتصي وإنما لابد أن يكون ابلعي، ونحن نعلم معنى كلمة البالوعة ومعنى أن يبتلع الإنسان شيئًا، فنحن لا نستخدم كلمة البلع إلا حين يتسع الحلق إلى أقصى مداه، واتساع مدى الحلق نسبي، فحلق الأرض يخالف حلقي وحلقك، هذا الاتساع هو الذي يجعل كلمة ابلعي هي رد الفعل المضاد على تفجير الأرض عيونًا.

ويجب أن نلاحظ الفعل (أقلعي) في «ويا سماء أقلعي»، فأقلع عن كذا معناه كف، وأقلعت السفينة أي غادرت الشاطئ إلى الاتجاه المضاد، ونحن حين نتصور

الخيط الرهيب النازل من السماء التي فتحت أبوابها بماء منهمر يجب أن نفكر في ما الذي يساعد على أن يتوقف هذا الانهمار عن غمر سطح الأرض؛ بالخيط الأول أخذ اتجاهًا مضادًّا سريعًا فالأرض أخذت تبلع والخط انحنى، وبقي الخيط الثاني الذي بطبيعته وبطبيعة قوة الجاذبية يبقى هابطًا من أعلى إلى أسفل، فكان يمكن أن نتصور أساسًا أن تغلق الأبواب التي فتحت والتي كان ينزل منها ماء منهمر، فإذا ما أغلقت الأبواب انقطع المصدر الذي كان يجيء من خلاله فيضان الماء، فإذا ما انقطع المصدر توقف الماء، لكن حين يتوقف الماء من نبعه فإن هناك كمية باقية بين لحظة التوقف ولحظة الهبوط الاضطراري بقوة الجاذبية، لذا أتصور أن كلمة أقلعي وقد عزف عن استخدام (عن) معها تكاد تقول للماء خذ الاتجاه المضاد، كأن الماء الهابط من أعلى، عليه أن يأخذ اتجاهًا مضادًّا أيضًا فيصعد إلى أعلى، وبعد أن (التقى الماء على أمر قد قدر) أخذ الماء الصاعد من الأرض يهبط والماء النازل من السماء يقلع لكي يتحقق التوازن في نظام الكون بزوال أثر الفعل الأول بنفس القوة التي أمر بها.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 44].

نحس بأن الطوفان هو مشهد مصغر للبعث، أي إعادة الخلق بعد الفناء، وهي مسألة تبرز القدرة العظمى، فنحن حين نحشد القوى لإجلاء مدينة أو إسكانها أو للرحيل أو الهجرة ترتبك بنا الوسائل، لأن من السهل أن تتحدث في الهواء، ومن السهل أن تتحرك مفردًا، ومن السهل أن تستقر، ومن السهل أن ترحل، لكن تبدأ كل أنواع الارتباكات العظمى عندما يكون المطلوب التنسيق بين القوى، وهذا يعود بنا مرة أخرى إلى هذا الصوت المجهول العظيم الذي تمثل في الأفعال المبنية للمجهول (قيل) و(غيض) و(قضي)، كأن آلاف القوى الخفية تريد أن تحكم السيطرة على ملايين الظواهر في لحظة واحدة، تتحرك الأمور من كل مكان، ومن أجل هذا فإن الأوامر العظمى في فعل الأمر الذي تحدثنا عنه سابقًا (ابلعي) و(أقلعي) يتعاون معها الفعل الماضي المبني للمجهول.

ويجب عند حديثنا عن بناء الفعل للمجهول أن نتحدث عن المسافة الزمنية بين فعلين على درجة كبيرة من القرب، نحن نقول أحيانًا غاض الماء ونقول أحيانًا غيض الماء، وقد يبدو من الناحية اللغوية البسيطة أن الفروق تكاد تكون منعدمة، لأنه في حالة هذا الفعل، البنية للمجهول لا تختلف عن البنية للمعلوم، فغاض الماء: جف، وغيض الماء: جفف، لكن دعنا نتصور السرعة بين جَفَّ الماء وجُفِّفَ الماء، نتصورها من خلال الزمن، ونتخيل اللحظة التي صدرت فيها الأوامر بأن تبلع الأرض ما عليها ثم بقي شيء على ظهرها نتيجة العوامل الطبيعية لاختلاط التراب بالماء والطين، لو أن الأمر ترك لكي يقال غاض الماء أو جف الماء فلابد من خلال التأمل أن يكون هذا الجفاف قد استغرق مدى زمنيًّا واسعًا حتى يظهر تأثير أشعة الشمس وانتشار الحرارة ومرور الهواء، لكن تصور الحال حين يقال: غيض الماء، فلابد أن هناك قوة أخرى إضافية قد سخرت العوامل الطبيعية لكي تظهر مزيدًا من قواها الاستثنائية بعد أن أمرت الأرض بأن تبلع والسماء أن تقلع، فتكون الشمس أكثر حرارة وتكون الرياح أكثر سرعة ويكون التشرب للماء أسرع، هذه مسألة كلها متضمنة في هذا النوع من البنية البسيطة (غيض) بدل (غاض)، ولنا أنا وأنت والعلم والعصر القادم أن يتصور كل منا ما الذي يزيد الماء جفافًا وما الذي ينشط أو يوجد ويفتح مزيدًا من المسام للتسريع بالتخلص من الرطوبة.

ونحن نجد لفظ الماء في الآية من ناحية علاقته بالأرض قد جاء مرتين الأولى ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ ورد الماء منكرًا ومسندًا إلى ضمير الأرض، والثانية ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ جاء الماء معرفًا بأل، والتأمل في هذا الاختلاف مفيد، فهذه الأرض وقد عوملت على طول الآية أنها كائن جبار عاقل، هي تؤمر من الله فتطيع، وهذا الماء سلاحها، فاحتفظي يا أرض بسلاحك.. ابلعي ماءك، فالإضافة هنا تكاد تعطي معنى ما نقوله للجندي الآن، ففرق بين أن نقول له حافظ على السلاح وبين حافظ على سلاحك، هذه الإضافة البسيطة تعطي الإيحاء بأن هذا من أسلحتك التي ينبغي أن تدخر، بالأمس فيه الهلاك وفي الغد إنبات وعمران، هذا جزء من السلاح يخصك، فليحتفظ كل من أمر فأطاع بسلاحه، بينما وجدنا السماء تخاطب (يا سماء أقلعي) لم يقل أقلعي عن إرسال ماءك؛ لأن من الفروق الدقيقة أن الأرض هي التي تحفظ الماء والسماء هي التي ترسله، فعندما يراد أن يحتفظ

بالماء في مكان ما فهو باطن الأرض، الماء في حالة السماء هو القوة المطلقة ولكنه في حالة الأرض يضاف إليها باعتباره قوتها الخاصة ومدخرها المخزون، على هذا النحو تتعادل الآيات؛ ولا بد أن نشير هنا بسرعة إلى أنه كما قيل في البدء (قيل) كانت النهاية بـ (قيل)، قيل الأولى لغير العاقل الذي سمع وأطاع، وقيل النهائية لهذا العاقل الذي لم يسمع ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38].

- **منهج المحاجة مع شوائب الشرك:**

وهذه الآية تمثل قطاعًا كبيرًا من الناس سواء في القديم أو الحديث، لأن هناك ظلالاً من الفروق في المعاني، ومشكلة العقل البشري أنه يظن أن الأشياء المتجاورة المتداخلة هي كتلة واحدة، وأن هناك فقط شرائط للإيمان أو للخروج منه، وهذه الطائفة التي تحتويها الآية تعترف بأن الله هو خالق السماوات والأرض وتكون بذلك قد اقتربت من الخلاص من الشرك نوعًا ما، فهم يعتقدون أن الله خالق السماوات والأرض ويقسمون باسمه ويرددون صفاته وهم مع ذلك مشركون والآيات قد صنفتهم إلى صنفين:

الصنف الأول: يتخذ أشياء يدعوها من دون الله، أما الصنف الثاني فهو يتخذ أشياء شفعاء.

ونقف في هذه الآية أولاً مع النوع الأول ونتخذ في نقده منهجًا لغويًا طريفًا فهي تفترض أن هذه الحجة تنقض على لسان من يحاورهم بالإفراد ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم ...﴾ ثم هذه الحجة عندما تأتي على لسان المنكر لها تقول: إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته... مع أن المحاور ليس من الذين يعتقدون في هذه الآلهة، وهذه هي المسألة الأولى، فلم يقل فإن أرادك الله بضر هل هن كاشفات أو أرادكم برحمة هل هن ممسكات، لكن الطريقة العقلية الطريفة تكاد تقول: إذا كان لهؤلاء القوة فهي لكل الخلق، وأنا واحد منهم، فافترضوا

أني معكم، وأنا أقول لكم: هل تستطيع هذه الكائنات التي تدعونها أن تكشف عني الضر أو تمسك عني الرحمة؛ وهذه مسألة طريفة في طرائف الحجة العقلية، فهو بذلك يفوت عليهم أن يقول لهم: هل يكشف عنهم الضر، لأنهم سيقولون نعم، لأنهم في ظنهم واعتقادهم أنهم عندما يذهبون لتقديم القرابين لمنع كارثة ستحل أو لإنزال خير، ويأتي ذلك من الله، يظنون أن الأصنام التي قدموا لها القرابين هي التي كشفت الضر، أو أنزلت الرحمة، لكن الحوار الجدلي الواسع المدى يقول لهم: طبقوا ذلك عليَّ، لأن هذا هو التحدي إذا دخلنا في دائرة الألوهية والقدرة، فلا يمكن أن تكون قدرة الآلهة جزئية، وهذا هو الفرق الجوهري الكبير في قضية الألوهية بين الإسلام والديانات الأخرى، فبعض الديانات ترى أن الإله مختص بطائفة أو فريق بعينه، يحميها ويعطيها خيرًا، كما تفعل اليهودية بفكرة الإله، فهو لشعب مختار يرحمه ويسخر القوى؛ لكن الإسلام حرر فكرة الألوهية من أن تكون ألوهية لفريق؛ لأنه حرك العقل البشري لكي يأخذ مساره في التفكير، حيث يقول لهم إن كان عندكم شيء من القدرة، فهذه القوة منه وله، وهذا هو الجديد، فتبدأ الأمور بهذه الطريقة وهذا هو التحدي الأول.

ونتوقف هنا أمام المقابلة بين كاشفات وممسكات وهذا من الدلائل الطريفة فكأنه يقول لهم «أفرأيتم.. هل هن» وعندما نتأمل القرآن نجد أن اللغة تفترض أن غير العاقل كالأصنام تعامل معاملة المفردة المؤنثة فيقال: (هل هي) ولكن القرآن أتى بـ (هن) للدلالة على هذه الكائنات الوسطى، وهذا نوع من التسليم المبدئي بحجة الخصم لإجهاضها فيما بعد؛ لأن هذا الخصم يعتقد أن هذه الكائنات قلة ولها قدرة ولها فاعلية، ولذا لا داعي الآن لأن نتجادل مع هؤلاء في ذلك؛ فلنفترض أننا نوافقهم مبدئيًّا لأن الدليل القوي سيأتي في الإمساك والكشف وإثبات العجز فإذا أثبتنا العجز مع التسليم المبدئي بالمحاجة بأن فيها نوعًا من العقل، فالعجز أحرى أن يثبت إذا كانت في واقع الأمر خالية من العقل.

والملاحظ أن كشف الضر و إمساك الرحمة يدخلان في باب السلب، فهي لم تعط رحمة أو تسبب ضرًّا، فكل ما يظن الجبابرة والظالمون والمتألمون أنهم يفعلونه لا يجدي لأن الرحمة تتسرب من طرق أخرى، فحتى ما ينسب إليهم من سلب نتيجته مجهضة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ...﴾[الزمر: 39-41].

وهذه الآية تأتي بين شريحتين، تحدثت الآية الماضية عن الشريحة الأولى، وبعد ذلك سوف تأتي الشريحة الثانية التي تتخذ شفعاء، وتفصل بين الشريحتين آيات تبين فكرة العاقبة لكلتيهما، والشريحة الأولى كانت أكثر إيغالاً في الشرك، لأنهم يدعون من دون الله أولياء، هذه الشريحة يدفعها ذلك النوع إلى الوقوف في موقف التردد بين إخلاص الألوهية أو الاعتماد على نصف ألوهية إن صح التعبير، ويجعلها هذا أيضًا تتردد بين لمن يعود الحساب، ومن ثم لمن تعود مسألة التوبة، وهذا يعطيها إحساسًا زمنيًّا بالتراضي، لأنه ما دامت تصنع شيئًا لذيذًا ويرضيها ومن الممكن أن تحسنه، فقد تحسنه غدًا، ولماذا تنتظر غدًا فقد تحسنه في العام القادم، ولم لا تستمر على ما هي عليه فقد تحسنه عند الشيخوخة، ومن هنا تأتي الآيات لكي توضح أن هذا أيضًا وهم في التفكير مساوٍ تمامًا لوهم التفكير في وجود الأدعياء وعدم الإدراك المجرد لمعنى الألوهية المطلقة وخلطها بأشياء جانبية وثانوية.

وهنا وهم إدراك الزمن ومروره، فنحن نظن في كل لحظة أن الزمن مستمر ما دام نفس يخرج ونفس يدخل، فموعدٌ اليوم وآخر غدًا، ولا مانع في أن ترتب الحياة بهذا النوع إذا صحبه إحساس بالعمل للآخرة كأنها آتية غدًا كما نفعل للدنيا كأنها دائمة أبدًا.

ومن الوهم أن يدرك الإنسان أن هناك فاصلاً بين لحظة الحياة ولحظة الموت، وأن يقول الإنسان: الموتُ قادم في مقتبل العمر فالموت لا موعد له، وهنا تأتي التذكرة الجميلة بأنه لابد من العمل من اليوم، وهذا ليس خطابًا للآخر فقط، ولكنه ابتداء خطاب للنفس، فخطاب النفس هنا يأتي كمركز رئيسي يقول لهم إذا كانت آلهتكم المدعاة لا يستطيعون أن يرفعوا عنى ضررًا أو يمسكوا رحمة، فإذا عجزوا فأنا أول العاملين ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذه مسألة توضح أن العمل له إحدى نتيجتين، إما العذاب المقيم أو الثواب والنعيم، وهذه هي مهمة الكتاب الذي نزل لكي يوضح الطريق إلى العذاب والطريق إلى الثواب ثم يأتي الجرس المنبه القوي في الآية التالية.

• بين الموت الأصغر والموت الأكبر:

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 42].

يأتي الموت هنا لكي يحسم فكرة التردد بين التوبة والإرجاء في مقابل التردد بين الألوهية الخالصة والألوهية المشوبة بالشرك، فيأتي التذكير هنا بأن هناك موتًا على الأقل مرة كل يوم، ونلاحظ هنا اختيار الفعل يتوفى وليس يميت، لأن التوفي معناه بلوغ الأجل مداه، لأنه ليس هناك موت بمعنى انقطاع الحياة، لكنه انتقال إلى حياة أخرى فيها الثواب والعقاب، فالتوفي يتم مرة كل يوم على الأقل بمعنى أنك إذا ظننت أن هذا النهر لا نهاية له فإنه في كل يوم يسد ويحتمل أن يقف التدفق ثم يعود من جديد لكي يتم التذكر بأنه كما لا داعي للتردد بين اليقين في الألوهية الخالصة وبين الألوهية المشوبة، فإنه أيضًا لا داعي للتردد في اليقين بأن الزمن يمكن أن ينتهي في أي لحظة ومن ثم ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ...﴾.

ونلاحظ أيضًا التباين بين ﴿فَيُمْسِكُ﴾ ﴿وَيُرْسِلُ﴾، كأنك مسافر، وفي كل محطة من المحطات من الممكن أن تكون هذه المحطة هي النهاية، وأنت عندما تدخل محطة الوصول التي تتمثل في الموت فإنك لا تضمن من الذي سيصرح لك بمواصلة المسيرة بعد هذه المحطة، وكأن هناك زمرًا وطوائف من الأنفس التي توفاها الله في هذه اللحظة وكان الأصل فيها أن تقف لأنها وصلت إلى محطة العدم، لكن هناك استثناء ليوم آخر أو لساعات أخرى يتم خلالها الإرسال، وهذه خلخلة في مسألة اليقين في البقاء المطلق وأن الأصل في النفوس أن تمسك في محطة الاستراحة التي يمكن أن تكون استراحة دائمة.

ونلاحظ هنا أنه قال أجل (مسمى) ولم يقل محدد، لأن الشاعر الجاهلي القديم كان يظن في تصوره أن الموت يمسك بحبل طويل جدًا وفي يده طرف الحبل الذي يطوق الإنسان، والإنسان يظن أن الحبل ممتد ولكنه يفاجأ بالحبل يشد في أي لحظة.

لعمرك إن المـوت ما أخطأ الفتى   لكالطـول المرخـى وثنياه باليد

متى ما يشـأ يومًـا يقده لحتفه   ومن يك فـي حبل المنيـة ينقد

وهذا التصور البسيط الساذج لفكرة أن الموت يمسك طرف الحبل ربما يقابله في التصور الديني أن الأجل معروف ومحدد، فلكل أجل كتاب معلوم مسجل مرقوم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: 64].

- **لوحة تجليات العظمة الإلهية في القبض والنشر:**

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

– نكاد نسمي هذه اللوحة «تجليات للعظمة الإلهية في الرد على من استهان به»، لأن القرآن قائم في كثير من آياته على فكرة الحوار العقلي البشري لا يقارن به كتاب مقدس آخر، ولذلك يتمشى مع العقل البشري وشكوكه ويرد عليها لكي ينتزع بذور الشك من عقله، من أجل ذلك كانت هناك أسئلة كثيرة تصل إلى إنكار أشياء مسلم بها ومع ذلك يوردها القرآن ويفندها ويرد على أصحابها، وذلك في مسائل النبوة والرسالة والألوهية، فمثلاً استغرب المشركون كيف يكون الرسول رجلاً عاديًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وكيف لا يكون رجلاً من القريتين عظيمًا، وكيف لا يكون معه ملك، وهذه كلها تساؤلات ربما لوحظ فيها عدم نضج العقل الذي يطرحها، لكن فليكن، فهذا الكتاب جاء لكي يأخذ هذا العقل غير الناضج ويصل به إلى مرحلة أكثر نضجًا مع افتراض حسن النية في هذه المحاور، ومن أجل هذا نجد في سور كثيرة في القرآن حوارات متشككة كثيرة جدًا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 5،4] ومع ذلك يأتي

الرد ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الفرقان: 6] رد هين على دعوى أنه أساطير الأولين وأنه كذب، ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: 7، 8] وهذه كلها أنماط من افتراضات العقل البشري، وإمكانية أن يضرب مثلاً وأن يعترض اعتراضًا ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[الفرقان: 9] ويأتي الرد على هذه التساؤلات في حينها بطريقة هادئة ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾ [الفرقان: 10] وهذا نمط من الحوار الممكن المقبول، لكن المشكلة هي عندما يذهب الحوار حدًّا يدل على شدة الاستهانة، وأن المحاور ليس من نمط (حسني النية) الذين يريدون دليلاً أو هداية، أو نمط المتشكك الذي يريد يقينًا، ولكن من نمط المكابر، وذلك عندما يأتي بهذا الاقتراح العجيب جدًّا وكأن مسألة الألوهية هي لعبة من اللعب، فهم يدعون إلى اقتسامها بين الله وبين آلهتهم المدعاة، ومن أجل هذا نلاحظ في الرد عليهم ارتفاع نبرة عدم الرضا والسؤال الاستنكاري ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[الزمر: 64]، ووصف الذي يطرح هذا السؤال بالجهل، ثم تبدأ تجليات الرد، فلم يقل إنه لا يمكن أن تكون العبادة لنصْف إله، ولا يمكن أن تقتسم الألوهية مع الأصنام، لأن هذه مسألة لا يرد عليها إلا بالتذكير بالقدر الحقيقي ومن أجل ذلك قال ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: 67] وتأتي هذه الآية لكي تدخل في مرحلة أخرى من مراحل الحوار يبين لهم قدر الله سبحانه وتعالى؛ ولذا تتجلى العظمة الإلهية من خلال مشهد الحشر والإفناء والإحياء والحساب الذي يتم، وهذا مشهد من روائع المشاهد في القرآن الكريم.

وربما نلاحظ أنه قال: ﴿جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ...﴾ وكأنها أجزاء متفرقات تجمع في وقت واحد، وهذه الصبغة كما أشرنا سابقًا تترد في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: 44] ، وهي مسألة تأتي في السياق القرآني للاسم الواحد الذي يشتمل على أشياء كثيرة، فيشار إلى لفظه

بالإفراد وإلى معناه بالجمع، لكننا أيضًا نلاحظ هنا نمطًا من التوازن العجيب في تجليات العظمة بين ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ أولاً هنا إفراد في جزء التركيب في ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ وهنا في جزء التركيب المقابل ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 67، 68].

ويجب أولاً أن ندرك أن فكرة التصوير بصفة عامة في القرآن هي لتقريب المعنى لذهن البشر لأن مسائل التجسيد وما يتصل بها مقصود بها فقط هذا العقل الذي يستطيع أن يستوعب الصورة البصرية أو السمعية بطريقة من الطرق تقرب له جوانب العظمة مع الوضع في الاعتبار أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ...﴾ [الشورى: 11]، وأنت عندما تأتي إلى مرحلة بناء الجمال التعبيري اللغوي ستلاحظ فكرة التوازن بين القطعة الأولى وهي مكونة من جملة شديدة التكثيف ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بمعنى أن عنصري الجملة الرئيسيين مفردان: ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ و﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ ولم يقل (الأرض في قبضته) بل قال (الأرض قبضته) وكأن قبضته من الناحية اللغوية البحتة هي خبر لمبتدأ (الأرض)، وكأن الأرض جميعًا تحولت إلى قبضة الرحمن، وليس ذلك فقط، فهناك فارق في درجة السيطرة بين القبضة وما في القبضة؛ لأننا إذا تصورنا أن هناك شيئًا نريد أن نصدر له الأمر، وهو في القبضة فنحن نمر بمرحلتين: الأولى إمساكه في القبضة ثم تحريكه بالقبضة، أما القبضة نفسها إذا أردنا أن نصدر لها أمرًا فإننا نختزل الخطوتين في خطوة واحدة، وسنرى في المقابل أن السماوات مطويات بيمينه، وقد يبعث هذا الذهن إلى التساؤل أين القبضة اليسرى؟ ولم تمت الإشارة إلى اليمين مرة وعدم الإشارة إلى اليسار؟ يعني لم يقل الأرض بيساره أو يسرى قبضته، وطبعًا هذه المسألة في البنية اللغوية البحتة يهمنا منها ما الذي يشع في الذهن من ذكر شيء ومقابله وذكر الشيء والاستغناء عن مقابله.

ونحن هنا نتحدث عن المشهدين الكبيرين لفكرة الإحياء والإفناء، فالإفناء أولاً يأتي بالقبض والطي، أي أن تجمع الأشياء البعيدة كلها وأن تكورها وأن تجعل الأفق الذي يبدو شديد الاتساع يعود إلى ذرة واحدة، يعود إلى محور واحد، ومسألة القبض هذه مسألة علمية شديدة التعقيد، فإذا كانت الأجرام قد نشأت من كتلة واحدة ثم انبسطت، فإنها في لحظة معينة لكي تعود إلى أصلها تنقبض وتطوى كأنك تريد أن تشكل أولاً مشهد الإفناء والذي يعقبه مشهد الإحياء، ويجب أن نلاحظ إلى جانب فكرة الفرق بين المفرد والجمع أن هناك فارقًا بين الصوت المغلق والصوت المفتوح، فإذا لاحظنا أن جرم الأرض جرم مكتوم ساكن فإن أصداء المد فيه ملغاة بالنسبة للحروف وانعدام المد، ونلاحظ ذلك أيضًا بالنسبة لحرف الضاد الذي يكرر في الأرض وقبضته، وحرف القاف، هذه الحروف كلها كأنها حروف قضقضة والتهام وانكماش وتأتي بعدها ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ستجد هذه الجملة وحدها ثلاثة من حروف المد التي تعطي إلى جانب الجمع في المبتدأ (السماوات) والخبر (مطويات)، تعطي صورة عن رحابة أفق السماء وامتدادها إلى ما لا نهاية في مقابل التكثيف في ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾، وهذه الجوانب العظيمة هي إظهار لتجليات القدرة للذين اتخذوا أندادًا وشركاء لله.

تأتي الآية التالية: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ...﴾.

وإذا كانت الصورة السابقة بصرية فالصورة في هذه الآية سمعية، وسوف نلاحظ التدرج في الصورة السمعية إلى مرحلتين، مرحلة النفخة الأولى، نفخة الإفناء، ومرحلة النفخة الثانية، نفخة الإحياء.

وسوف نلاحظ كيف تبادلت الصورتان السمعية والبصرية أصداءهما لكي تسعها في رسم مشهد تجليات القدرة العظيمة.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

تأتي دلالة تكرار اسم الموصول (من) لتفيد تعدد الكائنات التي نعلمها والتي لا نعلمها، ففكرة: من الذي سيصعق؟ هذه مسألة أشد تعقيدًا من أن تجمع؛ لأن خبرتنا بالكون محدودة، ومن أجل هذا يشار إلى من في السماوات ومن في الأرض

بأن الصعقة الأولى ستدركهم، لكن يبقى الاستثناء الذي وجد مع النفخة الأولى ولم يوجد مع النفخة الثانية وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ففي نفخة الإفناء الأولى سيكون الصعق شاملاً إلا من شاء الله.

ويربط بين النفختين (ثم) التي تعطي لنا بعدًا زمنيًّا لا نعلمه، فلم يقل: ونفخ فيه أو فنفخ فيه، لكننا نلاحظ شيئًا مهمًّا في النفخة الثانية نفخة الإحياء ألا وهو أننا إذ كنا نلاحظ أن النفخة الأولى نفخة الإماتة قد خلت من الحركة، وأن كلمة الصعق تفيد الإفناء بسرعة مذهلة، ولم يبدُ على الأجساد شيء فإذا ما جئنا إلى النفخة الثانية وهي نفخة الإحياء لا نجده يستعمل تركيبًا مقابلاً لقوله: (فصعق) وهو مثلاً: فردت الحياة إليهم، لكن الآية تتحدث عن مرحلة متأخرة في الإحياء وهي قوله ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾، ثم قوله بعد ذلك ﴿يَنظُرُونَ﴾، وهاتان الصفتان (القيام والنظر) عندما تتلبسان فكرة الإحياء تبينان إلى أي مدى تتم الحركة الديناميكية الشديدة جدًّا، ثم لم يذكر القرآن إلى أي شيء ينظرون ولكن تركه للتخيل.

ونلاحظ على الآية قلة عدد الكلمات فلم يقل: ونفخ في الصور نفخةٌ، مع الإتيان بكلمة أخرى في الثانية وبناء الفعل على ما لم يسمَّ فاعله، كل هذا يدل على القوة الحاصلة في الفعل ثم تأتي الآية الأخرى ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ حيث نلاحظ على هذه الآية فكرة الشفافية، وما بعد نفخة الإفناء ونفخة الإحياء، حيث تتعرض الآيات لهذا المشهد المهيب (مشهد المحاكمة).

• تفاصيل مشهد المحاكمة العادلة:

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69].

سبقت هذه الآية بمشهد عظيم مهيب، يأتي أولاً في شكل صورة بصرية، تأتي مباشرة بعد الصورة السمعية المدوية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وهذه الصورة السمعية المدوية هي صورة الإفناء والإحياء، وتأتي بعدها صورة محاكمة عملية دقيقة جدًّا، لها نظائر في الحياة البشرية، ولها طقوس وتقاليد، ومشهد المحاسبة يوم القيامة من المشاهد التي عنيت بها الديانات كل بطريقته، وأصبحت- بما ترسم من صور وما تقدم من نماذج- تكاد

تختزل جوهر الديانة في فكرة العدل المطلق والشفافية المطلقة، عندما نعود إلى مشهد المحاكمة كما نفهمه في حياتنا الدنيا فلابد أن نرى أن المحكمة باعتبارها مكانًا وقاعة للمداولة، وأروقة وسجلات وتهمًا تقدم، وتحايلاً للخروج من التهمة، ومكائد تدبر، وقد يجد الإنسان نفسه وقد دبرت له مؤامرة ومكيدة، وإذا به ملقى في السجن، كل هذه الأشياء قادمة من انعدام الشفافية، لأن كل شيء يدبر تدبيرًا خاصًا، يدبر بليل أو ما يشبه الليل؛ لذا كانت الاستعاذة من الغاسق إذا وقب، ومن ظلمة الليل، فكل شيء يدبر خفية فهو قرين الظلام، وكل شيء يعلن عنه بوضوح فهو قرين النور، ولذا فإن هذه اللوحة العظيمة بدأت بالإشراق، وتبدأ المحاكمة بقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ والملاحظ أن الإشراق نسب للأرض، ونحن نجد عندنا مصدرًا للضوء ومصبًّا له ونقول في كلامنا: أشرقت الشمس، وفي المجاز، أشرق وجه فلان، وننسب الإشراق عادة للضوء، لكن هنا لا تستطيع عيوننا أن ترى مصدر الضوء، فنحن نَكِلُّ حتى عن تصور رؤية ومصدر الضوء، وهو نور الرب، فلم يبق إلا أن يركّز الحديث على مصب الضوء.

وتشير الآية إلى فكرة لا محدودية النور، ومن ناحية منطق اللغة عندما ينسب فعل لشيء كأن نقول: أشرق النور وطلع الفجر هذا حصار للفعل والفاعل يكاد يجعل الفعل منصبًّا على الفاعل محيطًا به، فكأنك حددت الذي حدث، لكن الذي يحدد الآن بطريقة أو بأخرى هو مصب الضوء ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ والذي جاء من وراء الوراء هو النور، لكن يعمّ جزء منه هذه الأرض فتشرق ويبقى الباقي، فأنت هنا أخذت قبضة من النور، وهذا جزء من سر عدم الوقوع في دائرة الفعلية والفاعلية المباشرة، وكأنها فكرة الضوء غير المباشر الذي لا حدود له، وهذا جزء من فيضه وجزء من قبسه.

وجاء التعبير بلفظ (الرب) دون لفظة أخرى، وهاء الضمير الذي يعود على الأرض لتتجسد فكرة معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فالأرض الآن بعد أن كانت قبضته، وبعد أن كانت هذه الأرض نفسها نلاحظ عليها الانكماش والكتمان، ها هي تشرق وتتحرك، لكي تأخذ دورها المنوط بها في رسم هذه الصورة الجميلة.

وإذا إشراقة المكان وشفافيته التي تعني ظهور كل همسة وخافية هي بداية فكرة المحاكمة العادلة، تأتي فكرة عريضة الدعوى- تقريبًا للأذهان-، وتأتي

فكرة الكتابة، وهي من الأشياء الدقيقة التي ركزت عليها آيات القرآن الكريم، مع أنها جاءت في الأصل لأمة أمية، تبدو الكتابة فيها شيئًا غير شائع، وتبدو فكرة الاعتماد على المشافهة والرواية هي الأكثر شيوعًا، ومع ذلك فإنه على المستوى الحسي والمعنوي والمستوى الظاهر والمستوى الباطن جاءت فكرة التسطير والكتابة لتدل على مدى دقة الحساب والجزاء، فحتى في التراث الديني نجد فكرة الملائكة الذين يكتتبون الأعمال لحظة بلحظة، وهذا الذي يكتب خارج عن مظنة النسيان والذي تجمع عنده الأوراق هو المسيطر على كل شيء، ومع ذلك فإن الدقة تقتضي- تقريبًا للعقول- أن توضع الأشياء كلها في لحظة أولى في عريضة الدعوى، وإذا كانت عريضة الدعوى مطروحة في وسط النور فلا خفاء.

أما قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فقد جاء على صيغة ما لم يسمَّ فاعله، إشارة إلى فكرة جنود ربك، بمعنى أنك لا تدري في ذلك اليوم بعقليتك وعقليتي من الذي وضعه، حيث إن منطق اللغة يرى أن الكتاب لابد وأن يضعه واضع وأن يفتحه فاتح، فهناك أمور تتحرك بذراتها ودقائقها لكي تؤدي الهدف في وقت واحد، مع دلالة أفعال هذا السياق على مسألة الجندية.

وقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ تتمثل فيه فكرة العدالة أيضًا، لأنه من الممكن مثلاً أن يذكر في عريضة الدعوى ما لم أفعله، وحينئذ أقول: هذا من كتابة الكاتب وليس من صنعي ولم أفعله، ولم آت به، فتأتي الخطوة الثالثة من خطوات المحاكمة وهي فكرة الشهود، وهي فكرة لافتة للنظر في هذه الآية، لأننا تعودنا في المحاكمة العادية أن نأتي بشاهدين، شاهدي عدل في أحسن الأحوال، لكنهما من عامة الناس الذين تنطبق عليهم شروط دنيا في مسألة العدالة، ويخضعون للجرح أحيانًا. لكن لكي تكون المسألة صارمة جيء بنمطين من أصحاب الدليل الشفاهي، جيء بنمط من أرقى الأنماط، لأنه نمط الذين حملوا الدعوة وبلغوها أولاً، ومن أجل هذا يأتون شهودًا على هذا الموقف وهم النبيون، وجيء (بالشهداء) وهي كلمة شديدة الغرابة في التعبير القرآني، لأنك عندما تقلب المفردة على جوانبها المختلفة، وهي جمع مفردها (شهيد) هذا يقودنا إلى فكرة الشاهد الذي لا يكذب فكرة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾ [النور: 24] يدخل بك في فكرة الشاهد الذي لا تتوقع أن يكون شاهدًا، وهو شاهد عندما يسأل، حتى لكثرة الاستغراب الذي

مؤداه كيف قال ما قال، يقول: أنطقنا الله، فقضية الدليل الشفاهي المؤيد والملازم لدليل كتابي تجعلنا أمام مشهد متميز لفكرة العريضة والشهادة المصدقة له.

ثم تأتي إلى مرحلة القضاء في قوله تعالى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهذه ظاهرة تكاد تلفتنا إلى ظاهرة معاصرة، وهي أن كل الظالمين الآن يدَّعون أنهم يتصرفون وفق القضاء، وأنه يقول لك: أنا أمسكت فلانًا من بيته لأنه خطر علينا، وقد يقبض على جماعة كبيرة لأنهم في قضائه مدانون، لكنه لم يقل لنا إن كان قضاؤه حقًّا أم غير حق، وقد يأتي ديكتاتور أو غاشم أو معتل ويقول: إذا سرت في الطريق بغير إذني فأنت مخطئ، وقد سرت وقبضت عليك، وأودعتك السجن، لكن لم تقل لي: أي حق جعلك تعتقد أن سيري في طريقي دون إذنك خطأ أعاقب عليه، فلا يكفي أن يقال (وقضي بينهم) فقط، لأن كل الظلمة يقضون، أو يلبسون جرائمهم ثوب القضاء، لكي تبدو الأمور مقننة ودستورية، وكثير من الناس قد قبض عليهم بتلفيق قضائي واضح، لأن هذا التلفيق فقد الحق، لكن هنا يأتي هذا العنصر الذي يبين أنه بعد لحظة الشفافية والإشراق، وبعد عريضة الدعوى، وبعد الدليل الشفهي من الشهود يأتي كون عملية القضاء ذاتها تسير وفق مبدأ الحق.

ويأتي اختيار لفظ (بينهم) وليس عليهم، فالبنية هنا لها دلالات كثيرة أيضًا، لأن القضاء في الدنيا يكون بناءً على مخالفة أمر ما فيقضي على المخالف القاضي وفق قانونه ورأيه فكأن الجاني قد ظلمه بخروجه على الأمر، أما هنا فالقضاء يكون (بينهم). ثم تأتي إلى المرحلة الأخيرة التي صورتها هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فحتى بعد أن يصل النص إلى مداه في وصف المحاكمة الشفافية، وفي وضع عريضة الدعوى وفي السماع إلى شهادة الشهود الذين قد يكونون جزءًا من أعضاء البدن نفسه، وفي وضح شرعية وعدالة الدستور الذي تمت على أساسه المحاكمة يأتي هذا التذييل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وهناك عبارة شهيرة لأحد المفكرين يقول فيها: «أعرف كثيرًا من القضاة حكموا على ذويهم بالظلم لكي يشتهروا بين الناس بالعدل».

فجاءت عبارة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لكي تعم الكل، فهي ليست على النطق بالحكم فقط، بل جاءت لكي تنسحب على عدالة النص الذي تمت المحاكمة على أساسه.

• **سورة الزمر الآيات** 70-72.

بعد أن توقفنا مع صورة المحاكمة أو مراحل المحاكمة كما أوضح قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ نأتي إلى آية ختامية تكون هي وما يليها من آيات ختامًا لهذا المشهد ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: 70]، وهنا نتساءل لماذا جاءت الصيغة الأولى بالماضي (عملت) والثانية بالمضارع (يفعلون)، هذا ربما يوضح الفرق بين مراحل القيام بشيء ما، مثل الهمّ بالفعل دون القيام به، أو النية والخطأ أو الصواب، ثم مراحل الرصيد والذي يبقى في الرصيد هو الأعمال التي عملت؛ والذي يتم أثناء الفعل من نية وعمل وإقدام وإحجام وإصابة- هو هذه الحركة الدائمة التي تسجل لحظة بلحظة، وتحذف منها أشياء وتحذف نوايا سيئة لم تتم، وتضاف نوايا حسنة تم العجز عن القيام بها.

وتأتي هذه الآية كمدخل إلى مشهد آخر عظيم بعد أن تمت المحاكمة وصدرت الأحكام وهو مشهد تنفيذ الأحكام ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾[الزمر: 71]، وجاءت عملية السوق هذه أيضًا في إطار الانتقال هذه المرة من الإفراد الذي تحدده فكرة (كل نفس)، بمعنى أن المحاسبة أولا ستتم بغاية الدقة فردًا فردًا، وكل واحد له كتابه وشهوده، وعندنا القانون العام وعدم الظلم في التنفيذ؛ وعندما تنتهي نتائج المحاكمة سوف يتم التصنيف، ويتم التصنيف هذه المرة إلى صنفين كبيرين، وداخل كل صنف جماعات وزُمَر، وهذان الصنفان الرئيسيان هما (الذين كفروا) و(الذين اتقوا)، وسوف تتم الحركة في هذا الإطار، في إطار الذين ينتمون إلى زمرة واحدة في درجة واحدة من درجات العمل السيئ الذي تم البدء به أو الحسن الذي تم الختام به؛ وسوف يساقون جماعات، وهذا السوق نفسه قد يكون مصدر بهجة كبيرة أو مصدر حزن عظيم، كما أن السوق يمكن أن يفهم منه الإذلال كأنهم حيوانات تساق، كما يمكن أن يفهم منه في مشهد آخر التكريم كأنهم جماعات يرحب بها ويتحركون، ولكنهم على كل حال يتحركون زمرًا.

فأما المشهد الأول فهم أولئك الذين سيقوا إلى جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها.....، ونحن نجد أنفسنا هنا أمام مشهد مجزأ سنجد تفاصيله هنا مختلفة عن تفاصيل المشهد التالي مباشرة، نحن في هذا المشهد عندنا مقدمات للعمل وعندنا نتيجة له، عندنا كما نقول في تشريح الجملة شرط وجزاء، عندنا فاتحة وخاتمة، بالنسبة

للفريق الأول الذين سيقوا إلى جهنم زمرًا.... هؤلاء حتى إذا جاءوها- فجأة- فتحت أبوابها، انتهت كل المقدمات وبدأنا مباشرة في تنفيذ العقاب المنوط بهم، وعندما فتحت أبوابها بدأ سؤال الخزنة لهم وبدأ الحوار معهم بسؤال استفهامي تقريعي، وهذا السؤال يتشكل إذا انتبهنا إلى عناصره اللغوية من سؤال مطول يبدأ بأداة استفهام استنكارية ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: 71] ويعدد بقية العناصر مما أتى به الرسل ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، ونتوقع الإجابة من هؤلاء الذين وبخوا وألقى عليهم هذا السؤال المكون من (12) كلمة، فيقولون (بلى)، كلمة واحدة تأتي على ألسنتهم بعد هذا السؤال التوبيخي الطويل، لأنه لا وقت عند الخزنة للحوار مع الذين صدر الحكم عليهم، والقانون العام الذي يغطي إجابتهم الموجزة ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ هذا هو المشهد الموجز المختزل لفكرة الذهاب إلى أبواب جهنم، والاستقبال السريع الذي لا ترحيب فيه، وسوف نجد الحكم الذي سيصدر بعد ذلك لكي يغلق باب النقاش ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وأيضًا بالبناء للمجهول «قيل».

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 72].

ونأتي الآن إلى مشهد سوق الذين اتقوا، وهذا المشهد يستخدم طريقة من طرق القرآن في التعبير يمكن أن نسميها (المشاكلة)، فأنت تأتي لشيئين مختلفين، لكنك تعطيهما في البداية ثوبًا واحدًا، فإذا كان إيقاع المشهد الأول تم بـ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، وتم من خلال بنية فيها السوق بالبناء للمجهول، وأوضح صفة الذين تم سوقهم وطريقة سوقهم ومكان السوق- فقد بدأ المشهد الثاني بنفس عناصر المشهد الأول، وكأننا في الوقت الذي كنا نشتم فيه من رائحة (سيق) هذا النوع من الإذلال والامتهانا، فهم سيقوا كما تساق البهائم- يردنا هذا المشهد إلى أنه ليس كل سوق امتهانًا، وليست كل زمرة مجموعة من الغافلين، وليس كل خلود في عذاب، لأن الذين كفروا يخلدون وكذلك الذين اتقوا؛ فقد استخدمت الآية التي عرضت للمتقين نفس الاصطلاحات التي استخدمت في مشهد الإهانة للكافرين وأعادت لها الاعتبار، لكي تجد النفس مجالاً للمقارنة بين سوق وسوق، وزمرة وزمرة، وفريق وفريق وخلود وخلود.

فقد تأتي الفروق من بعض التفاصيل والدقائق اللغوية كفكرة (الواو) التي سبقت (فتحت) في الآية التي تعرضت للمتقين فأزاحتها عن أن تكون جواب شرط، بينما لم تجئ في حال الكافرين فأصبح الفعل (فتحت) جوابًا للشرط إيذانًا بأن هذا هو نهاية أمرهم، فمجرد سقوط الواو يلغي كل مسافة بين فكرة الوصول وفكرة بدء التنفيذ، لكن مجرد دخول الواو ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ هذا يعطينا فكرة عما نشهده نحن من مشاهد الترحيب حينما يأتي ضيف عزيز فيرحب به على مراحل، حينما يأتي يستقبل ويقدم له طعام أو شراب ويفتح معه حديث، ولا يسأل عما يريد، يعني هناك فرق بين أن تفتح الباب لمن لا تعرفه لكي يقضي أمرًا وتعطيه شيئًا أو تأخذ منه شيئًا وينصرف، وبين أن تفتحه لمن ترحب به، وحتى لو علمت أنه جاء ليسأل عن شيء، فأنت تؤجل سؤاله عن الموضوع الأساس توًّا، لأن هناك واجبات ترحيب وبشاشة وكلام.

ومن أهم هذه الواجبات طرافة فكرة استخدام الكلام، متى تفتح لضيفك مجال الكلام، ومتى تغلق للقادم إليك مجال الكلام، هؤلاء الذين سيقوا أولا (الذين كفروا) حينما سئلوا بسؤال مطول من اثنتي عشرة كلمة أجابوا بكلمة واحدة، قالوا (بلى)، أما المتقون عندما أتوا: أولا دخلت (الواو) لكي تجعل فتح الباب ليس بداية الجزاء أو العقاب ولكنه امتداد لمراسم الترحيب، وعندما استقبلوا استقبالا حسنًا قيل لهم: «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين»، أعطوا خمس كلمات للترحيب، فماذا أعطي لهم من فسحة زمنية لكي يعبروا، من خلال الإحصاء أعطوا أربع عشرة كلمة للتعقيب، وتصور أنت أن هناك اثنتي عشرة كلمة للتقريع يقابلها كلمة واحدة سُمح بها للرد، وهنا خمس كلمات للترحيب الذي دخل في إطار الحركة العادية، وقوبلت هذه الكلمات الخمس بأربع عشرة كلمة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[الزمر: 74]، وكما قلنا لم نجد جوابًا للشرط، فليست القضية لماذا جاءوا؟ وماذا يريدون؟ فهم قد جاءوا لأنهم كان يجب أن يجيئوا، واستقبلوا لأنهم جاءوا أهلا ونزلوا سهلا، وبدأت تنسى التفاصيل، ومن أجل هذا يختتم هذا المشهد باللوحة الجميلة التي تجمع بين الصورة السمعية والصورة البصرية في وقت واحد ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الزمر: 75].